بسم الله الرحمن الرحيم

الولاء والبراء في سورة الممتَحَنة

تأليف
وسيم فتح الله

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي أرسل رسله وأنزل كتبه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين فرّق الله تعالى به بين الحق والباطل فافترق الناس بدعوته قسمين فريق في الجنة وفريق في السعير، وعلى آله وصحبه الكرام الطيبيين الذين تولوا الله ورسوله والمؤمنين وتبرأوا من الكفر والكفار والمنافقين فأقام الله تعالى بهم الدين وجعلهم أئمة مهتدين لكل من أراد سلوك طريق الحق المبين.

وأما بعد؛

فإن مسألة الولاء والبراء تكاد تكون القضية الإيمانية الأولى في واقعنا اليوم بكل تفريعاتها وتشعباتها وأحكامها وموجباتها، ولما كان القرآن الكريم والسنة الصحيحة معيننا ومصدر هدايتنا كان لزاماً علينا العودة إلى النهل منهما لتقرير أمثال هذه المسألة العظيمة، ولقد تأملت في هذه السورة العظيمة فوجدت فيها من المعاني والمنهج والأسلوب ما يلبي حاجة كل مسلم اليوم لتحرير هذا الأصل الإيماني العظيم فعزمت متوكلاً على الله على محاولة تدبر واستقراء مفردات هذه الآية لمحاولة استنباط معالم ومفردات منظومة الولاء والبراء فيها لا سيما وأنها من القرآن المدني الذي اعتنى بالتطبيقات العملية للمبادئ القرآنية المكية، ولعمر الحق إن من أصعب ما واجهته في هذه الرحلة القصيرة الانتقال من آية إلى أخرى إذ أن كل آية من هذه السورة تأخذ لب قارئها ناهيك عن متدبرها فتأسره أسراً لا يكاد يجد منه فكاكاً؛ ابتداءً بذلك النداء الإيماني ومروراً بقصص أبي الأنبياء عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ثم وقوفاً مع معالم الإعجاز التربوي والمنهجي في تقرير أحرج وأخطر مسائل المعاملات الاجتماعية والدولية ثم إعادة الهيكلة وبناء المجتمع الإسلامي بأسلوب فريد لم يشهد التاريخ الإنساني مثيلاً له.

هذا كله مع خلود وصلاحية هذا المنهج لكل مسلم في كل مكان وفي كل زمان بحيث لو أتيت تطبق حيثيات هذه السورة اليوم لما ترددت في تنزيلها كما هي بكل حرفياتها وبكل جزئياتها على واقعنا لتعالج سقيمه وتشفي عليله ولما قصرت السورة في تحقيق الغاية المنشودة من تنزيلها ذاك.

ولقد عرضت مفردات هذا البحث في ثلاثة فصول كان أولها مدخلاً يعرف بالسورة وسياقها التاريخي وأسباب نزولها وخصائصها ليستحضر القارئ كل ذلك في سياق تدبر مسائل الولاء والبراء التي عالجتها السورة والتي عرضتها في الفصل الثاني ثم تلا الفصل الثالث حيث تطرقت لبعض المعالم الأسلوبية في منهج السورة ثم ذيلت بالخاتمة.

وأسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت فيما عرضت وأن يوفقني وكل قارئ للعمل بما وافق الحق منه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

اللهم يسر وأعن.

الفصل الأول
مدخل إلى سورة الممتحنة

إن الفهم الصحيح لمفردات هذه السورة تستلزم منا إلماماً بسياقها التاريخي وما يتعلق بها من مناسبات النزول وهذا ما نستعرضه في هذا الفصل إن شاء الله.

المطلب الأول: تعريف عام بالسورة:

سورة الممتحنة من السور المدنية كلها في قول الجميع[1]، وهي من سور المفصل - التي هي من سورة قاف حتى نهاية المصحف[2] - ومجموع آياتها ثلاث عشرة آية. واسم السورة الممتحنة والمشهور في هذه التسمية فتح الحاء وقولٌ آخر بكسرها، فعلى فتح الحاءِ هي صفةٌ للمرأة التي نزلت السورة بسببها - كما سنبين لاحقاً - وعلى كسر الحاء تكون التسمية صفة للسورة نفسها[3] أي بمعنى المختبِرة[4] كما ذكر الإمام القرطبي رحمه الله وهذا كما قيل لسورة براءة (الفاضحة)، ولقد ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني أن المعتمد هو الأول[5] أي بفتح الحاء.

وهذه السورة المدنية شأنها شأن السور المدنية الأخرى تعنى بتنظيم المجتمع والدولة المسلمة من خلال إرساء نظم وقواعد تسيير الدولة وتحديد علاقات ووظائف الأفراد فيها، وسن القوانين المدنية والحربية والاجتماعية والدولية وغيرها من ضروب المعاملات[6]، والحقيقة إن المتدبر في معاني هذه السورة يجدها تتناول مجموعة من المسائل الخطيرة المتعلقة بأمن الدولة الإسلامية على الصعيدين الخارجي والداخلي؛ أما الصعيد الداخلي فمن خلال تمحيص صفات المؤمنين وتحرير بنود بيعتهم لله ورسوله صلى الله عليه وسلم من جهة، ومن خلال تحديد العلاقة مع الأفراد غير المسلمين وحدود المعاملة معهم وضوابطها من جهة أخرى، وأما الصعيد الخارجي فمن خلال تحديد أطر التعامل مع الغير خارج الدولة الإسلامية وسن القوانين الحافظة لأسرار الدولة وأمنها بحيث تحقق التوازن المنشود بين التواصل مع الغير والأخذ بأسباب سلامة الأمة، وإن المتدبر في أثناء هذه السورة يجد أن السلك الناظم لكل مفرداتها إنما هو الدوران حول فلك الولاء والبراء، فلقد سلكت السورة مسلكاً عجيباً في تقرير هذه القوانين يتلخص في تشييد بنيان هذه القوانين المدنية على أساس من العقيدة الخالصة التي استغرق إرساء قواعدها ثلاث عشرة سنة دعا فيها النبي صلى الله عليه وسلم إلى تجريد التوحيد وتنقية القلب لتلقي غرسة لا إله إلا الله، فما كان أيسر البناء بعدئذ، وأنت ترى أن الدول اليوم تدور مصالحها الداخلية والخارجية على مثل هذه القوانين المتعلقة بأمن الدولة وأسس التعامل مع الغير أفراداً ودولاً ولكنك لن تجد لأي دولة في العالم أساساً عقدياً روحياً يؤمن نجاح هذه القوانين والأسس كما أمنته منظومة الإسلام وهذا ما يراه المتدبر لسورة الممتحنة حيث أقامت بناء هذه المنظومة الأمنية على أساس معتقد الولاء والبراء الفريد في الإسلام كما سنبين إن شاء الله.

وإن هذه السورة العظيمة من السور التي تنزلت آياتها مرتبطة بأسباب خاصة، ولهذه الخاصية أثرٌ مهم جداً في ترسيخ

---

[1] الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - 46/18
[2] تفسير القرآن العظيم - ابن كثير- 89/1
[3] فتح الباري شرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني - 623/9
[4] الجامع لأحكام القرآن - 46/18
[5] فتح الباري - 623/9
[6] مناهل العرفان - الزرقاني - 191/1 بتصرف

الضوابط التي سنتها هذه السورة لتكون ضوابط وقوانين عملية مباشرة التطبيق لا مجرد نظريات أمنية وقوانين مسنونة في السطور لا مكان لها في الصدور ولا أثر لها في الجوارح، وعليه فإننا سنجتهد في مطالعة أسباب النزول المتعلقة بهذه السورة لنحسن التدبر في معاني الولاء والبراء المتعلقة بها، ولكن لا بد لنا قبل ذلك من إلمامة موجزة بالمرحلة التاريخية التي تنزلت السورة فيها.

المطلب الثاني: السياق التاريخي لسورة الممتحنة:

كان الفتح العظيم من الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين بصلح الحديبية سنة ست للهجرة حيث قال الله تعالى: "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً"[7]، وكان مقتضى هذا الصلح وضع الحرب بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين مشركي قريش عشر سنين ويدخل في ذلك من دخل في عهد أو حلف مع أي الفريقين بحيث يعتبر الاعتداء على الحليف اعتداءً على الفريق الذي حالفه، كما كان من بنود هذا الصلح أن يرد النبي صلى الله عليه وسلم من فرَّ من المسلمين من قريش إليه بدون إذن وليه فيرده إلى قريش ولا عكس، ولسوف نرى تصويب الوحي لهذا البند من فوق سبع سماوات عند الكلام عن سبب نزول الآية العاشرة من السورة، ورجع المسلمون من عامهم هذا دون أن يعتمروا بالبيب الحرام - وهو ما كانوا خرجوا لأجله - وانكسرت نفوس بعض المسلمين لأجل ذلك ووهموا أن الصلح هزيمةٌ للحق وعلوٌ للباطل وكان عمر رضي الله تعالى عنه ممن أعلن بتغيظه لهذا الصلح حتى بَرَّد الله تعالى قلوب المؤمنين بسورة الفتح وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عمر فأقرأه إياها فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال نعم. فطابت نفسه ورجع.[8]

ومرت الأيام وأخذت تتفتق عن ثمار هذا الفتح العظيم الذي عميت عنه أبصار المسلمين بادي الرأي، ولا أطيل في هذا المقام لأنه ليس موضوعنا بل أنتقل إلى سنة ثمان للهجرة حيث كانت قبيلة خزاعة قد دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر في عهد قريش، فحصل نقض العهد من قريش بعدئذٍ حيث أعانت بني بكر بالسلاح لمّا أغارت بنو بكر على خزاعةً، واستنصر بنو خزاعة النبي صلى الله عليه وسلم حيث أتاه وفد بني خزاعة وأخبروه بما حصل من مظاهرة قريش لبني بكر عليهم، وحاولت قريش استدراك الأمر ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرد عليهم شيئاً وكأني بلسان حاله صلى الله عليه وسلم: جوابنا ما ترون دون ما تسمعون.[9]

---

[7] سورة الفتح - 1
[8] الرحيق المختوم - المباركفوري - 330-334 بتصرف
[9] السابق - 381-383

وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يتهيأ لغزو قريش وفتح مكة شرَّفها الله تعالى، وكان صلوات الله وسلامه عليه حريصاً على إخفاء عزمه والاجتهاد في التعمية على وجهته، حتى إنه صلوات الله وسلامه عليه أرسل سريةً إلى بطن أضم في أول رمضان لينتشر خبرها ويظن السامع أنها وجهة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا كله مبالغة في التخفي والتعمية وهذا من حنكته صلوات الله وسلامه عليه في الغزو.[10] ثم كان فتح مكة حيث أحلها الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار وفتحت دون إراقة قطرة دم وكان وعد الله حقاً، وكان وعد الله مفعولاً.

المطلب الثالث: أسباب النزول المتعلقة بسورة الممتحنة:

إن سورة الممتحنة من السور التي وافقت حركة المجتمع المسلم في تنزلاتها في مرحلةٍ حرجة من مراحل صراع الدولة الإسلامية مع رموز الكفر آنذاك، ولعمر الحق إننا اليوم بحاجة إلى تدبر وتمعن هذه السورة وكأنها تتنزل علينا اليوم وذلك لشدة ملابستها للواقع المعاصر، ولسوف يبدو عياناً لكل ذي بصيرة أن أسباب النزول التي سنتعرض لها في هذا الموضع لا تختلف عن مفردات واقع الصراع الذي تخوضه الأمة اليوم إلا في أسماء الأشخاص اللهم إلا ما كان له تعلق بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم أو بأحداث دينية لا تتكرر بطبيعتها وإن كانت تتكرر نظائرها وأعني بطبيعة الحال الهجرة الأولى من مكة إلى المدينة فقد ثبت في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونية وإذا استُنفرتم فانفروا"[11]، فهذه الهجرة المخصوصة قد مضت لأهلها، ولكن بقي لها نظير في الهجرة المعنوية من الكفر إلى الإسلام ومن المعصية إلى الطاعة وأخرى حسية في هجرة دار الكفر إلى دار الإسلام وفي النفير لنصرة المسلمين كما دل عليه توجيه النبي صلى الله عليه وسلم لمجاشع بن مسعود السلمي رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى اله عليه وسلم أبايعه على الهجرة فقال: "إن الهجرة قد مضت لأهلها ولكن على الإسلام والجهاد والخير"[12]. والشاهد على كل حال هو ضرورة عدم الوقوف ببصائرنا عند رسوم وشخوص أصحاب مناسبات نزول الآي، بل نتجاوز ذلك إلى صفات من نزلت فيهم ومناسبات هذه التنزلات حتى تتيسر لنا (معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل)[13]، فآي القرآن التي أنزلها الله تعالى وبيَّن فيها شرائعه إنما تدور حول مصالح العباد جلباً ومفاسدها درءً، ولا يمكن أن يتسنى لنا فهم ذلك فهماً صحيحاً كاملاً إلا بالتدبر في آحاد الحوادث التي تتعامل معها آيات التنزيل ومفردات التشريع الإسلامي العظيم، ولقد اقتصرت فيما يلي

---

[10] السابق - 384-385
[11] صحيح مسلم - كتاب الإمارة - حديث 1864
[12] صحيح مسلم - كتاب الإمارة - حديث 1863
[13] مناهل العرفان - 107/1

على الصحيح مما ورد من أسباب ومناسبات نزول آيات هذه السورة العظيمة، فلنتأمل.

أولاً: سبب نزول فاتحة السورة:

تقدم معنا أن قريشاً نقضت عهد النبي صلى الله عليه وسلم بمظاهرتها على خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم وقد بيَّت النبي صلى الله عليه وسلم المسير لفتح مكة وعمى على ذلك وتستر عليه، وفي الصحيح أن علياً رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوا منها، قال: فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة قلنا لها أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتُخرِجِنّ الكتاب أو لنلقيَنّ الثياب. قال: فأخرجته من عقاصها.فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يُخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا حاطب، ما هذا؟" قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، يقول: كنت حليفاً ولم أكن من نفسها، وكان معك من المهاجرين من لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنه قد صدقكم" فقال عمر: "يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق" فقال: "إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم" فأنزل الله السورة: "يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق " إلى قوله " فقد ضل سواء السبيل"[14]، وهذا الحديث والآية من أعظم الأصول المقررة لعقيدة الولاء والبراء كما سنبينه لاحقاً إن شاء الله، وسأرجئ التعليق على الحديث إلى موضعه من الكلام على الآية إن شاء الله.

ثانياً: سبب نزول الآية الثامنة:

وهي قوله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين"[15]، فلقد أورد الإمام البخاري في صحيحه حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبةً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أصِلها؟ قال: نعم" قال ابن عيينة - وهو شيخ شيخ البخاري في سند هذا الحديث - فأنزل الله تعالى فيها: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين"[16]،[17] قلت: وهذا التصريح بسببية النزول غير مرفوع ولا موقوف، ولكن يشهد لصحته أن أسماء

---

[14] صحيح البخاري - كتاب المغازي - حديث 4274
[15] سورة الممتحنة - 8
[16] سورة الممتحنة - 8

رضي الله عنها ذكرت هذه القصة في فترة العهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش - وهذا معنى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم الواردة في الحديث - كما جاء صريحاً في رواية مسلم قالت: "قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: "يا رسول الله قدمت علي أمي وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال نعم صلي أمك"[18]، فهذه الرواية وإن لم تذكر سببية هذه القصة في نزول الآية إلا أنها صريحة في ذكر زمان القصة وهو الزمان الذي تعلقت به الأحداث والمناسبات التي نزلت السورة بسببها، كما تفيد هذه الرواية في التصريح بكون أم أسماء مشركة، والحقيقة إن الإمام القرطبي قد ذكر في تفسيره هذا الخبر جازماً عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه أن أبا بكر الصديق طلق امرأته قُتيلة في الجاهلية وهي أم أسماء بنت أبي بكر فقدمت عليهم في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش فأهدت إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق قرطاً وأشياء فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين"[19]، فالراجح والله أعلم أن هذا سبب نزول صحيح، وإن تحرير هذه المسألة مهم كما سيتبين معنا لاحقاً إن شاء الله.

ثالثاً: سبب نزول الآية العاشرة:

وهي قوله تعالى: "يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن"[20]، وقد تقدم معنا أن من بنود صلح الحديبية الاتفاق على أن من جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قريش بغير إذن وليه فإن على النبي صلى الله عليه وسلم رده إلى قريش، وكان هذا عاماً في الرجال والنساء على حدٍ سواء، فعن عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما يخبران عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذٍ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يأتيك منا أحد - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك فكاتبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، فرد يومئذٍ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ - وهي عاتق - فجاء أهلها يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله

---

17 صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب صلة الوالد المشرك - حديث 5978 وما بين معقوفتين من كلامي

18 صحيح مسلم - كتاب الزكاة - حديث 1004

19 الجامع لأحكام القرآن - 54/18 ، ونسب الإمام القرطبي الخبر إلى الماوردي وإلى أبو داود الطيالسي في مسنده

20 سورة الممتحنة - 10

فيهن: "إذا جـاءكم المؤمنـات مهـاجرات فـامتحنوهن اللـه أعلم بإيمانهن" إلى قولـه: "ولا هم يحلـون لهن"[21]، [22] وفي روايـة أخـرى مطولة من حديث عروة أيضاً وفيه: "ثم جاء نسوة مؤمنات فأنزل اللـه تعـالى: "يأيهـا الـذين آمنـوا إذا جـاءكم المؤمنـات مهـاجراتٍ فامتحنوهن" حتى بلغ " بِعِصَمِ الكوافر" فطلق عمر يومئذٍ امرأتين كانتـا لـه في الشـرك.."[23]، قلت: تأمـل الفـاء الـتي تفيـد التعقيب والفورية وهكذا كان وقع كلام الله عـز وجـل في نفـوس أصـحاب رسول الله صلى الله عليـه وسـلم يـؤمرون فينفـذون بلا تـردد ولا تلكؤ فرضي الله عنهم أجمعين.

وعن عروة قال: أخبرتني عائشة رضي الله عنها أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحنهن بهـذه الآيـة: "يأيهـا الـذين آمنـوا إذا جـاءكم المؤمنـات مهـاجرات فـامتحنوهن" إلى " غفـور رحيم"، قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قـد بايعتـك" كلامـاً يكلمهـا به، والله ما مست يده يدَ امرأةٍ قـط في المبايعـة ومـا بـايعهن إلا بقوله"[24]

ونقل القرطبي رحمه الله ثلاثة أقوال في الـذي كـان صـلى الله عليه وسلم يمتحنهن به وخلاصة هذه الأقوال ما يلي:

1) أنه كان يستحلفها مـا خـرجت لبغض زوج، ولا رغبـةً من أرض إلى أرض، ولا طلباً لـدنيا، ولا عشـقاً لرجـل من المسـلمين، فإذا حلفت على ذلك قبل منها، وهذا منقول عن ابن عباس رضـي الله عنهما.

2) أنه كان يمتحنها بشهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهو أيضاً منقول عن ابن عباس.

3) أنه كان يمتحنها بالآية التي وردت بعد آية الامتحـان وهي آية المبايعة وهذا ما صـرحت بـه أم المؤمـنين عائشـة رضـي اللـه عنها في الحديث المتقدم.[25]

قلت: ولا تعارض بين هـذه الأقـوال الثلاث وإن كـان القـول الأخير من القـوة بمكـان سـنداً ومتنـاً، ومـدار الامتحـان كلـه على تحرير النية والعمل فتكون نية الهجـرة خالصـة للـه تعـالى وتكـون نفس الهجرة براءة من الكفر وموالاة لأهل الإيمان مـوالاةً صـرفة خالصة لا تشـوبها شـائبة دنيـا ولا هـوى نفس ولا رغبـة دنيـا، وهـو المطلوب.

---

[21] سورة الممتحنة - 10
[22] صحيح البخاري - كتاب الشـروط - بـاب ما يجـوز من الشـروط في الإسلام - حديث 2711
[23] صحيح البخاري - كتاب الشروط - حديث 2731
[24] صحيح البخاري كتاب الشروط - حديث 2713
[25] الجامع لأحكام القرآن - 56-57/18

رابعاً: سبب نزول الآية الحادية عشرة:

تقدم معنا أن عمر رضي الله عنه طلق اثنتين من نسائه كنَّ على الشرك فورما نزل قوله تعالى: " ولا تمسكوا بعصم الكوافر"[26]، قال عروة: أخبرتني عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحنهن، وبلغنا أنه لما أنزل الله تعالى أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على من هاجر من أزواجهم وحكم على المسلمين أن لا يمسكوا بعصم الكوافر أن عمر طلق امرأتين قريبة بنت أبي أمية وابنة جرول الخزاعي، فتزوج قريبةَ معاويةُ بن أبي سفيان وتزوج الأخرى أبوجهم، فلما أبى الكفار أن يقروا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم أنزل الله تعالى: "وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم "[27] والعقَب ما يؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار، فأمر أن يُعطى مَن ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللاتي هاجرن"[28]، قلت: أي لما أنكر الكفار حق المسلمين في رد صداق نسائهم اللاتي يهاجرن إلى الكفار إليهم أمر الله تعالى المسلمين أن يعوضوا من ذهب ماله بهذا الوجه بإعطائه من الصداق الواجب رده إلى الكفار الذين هاجرت نسائهم منهم إلى المسلمين وذلك على وجه العقوبة، والشاهد هنا أن موجبات الولاء والبراء قد تترتب عليها تبعات مادية أو غير مادية تشق على المسلمين فلا يكون ذلك مانعاً من التزام أمر الله بهجر من يجب هجره وتولي من يجب توليه فإن الله هو الغني بذاته والكل مفتقرٌ إليه، ومن خشي العيلة جراء التزام أمر الله فإن الله تعالى متكفلٌ له برزقه وحاجته.

خامساً: سبب نزول الآية الثانية عشرة:

تقدم معنا في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا امتحن المهاجرة إليه فأقرت بالشرط بايعها، وجاءت أحاديث أخرى تبين مضمون هذه البيعة وأنه ما ورد في هذه الآية من سورة الممتحنة، فعن أم عطية رضي الله عنها قالت: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا: "أن لا يشركن بالله شيئاً"[29] ونهانا عن النياحة.."الحديث[30]، وكانت هذه الآية تعرف بآية بيعة النساء، وكان صلوات الله وسلامه عليه يعظ النساء ويأخذ عليهن هذه البيعة ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله صلى الله عليه وسلم فكأني أنظر إليه حين يُجلّس الرجال بيده ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساءَ مع بلال فقال: "يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا

---

[26] سورة الممتحنة - 10
[27] سورة الممتحنة - 11
[28] صحيح البخاري - كتاب الشروط - حديث 2733
[29] سورة الممتحنة - 12
[30] صحيح البخاري - كتاب التفسير - حديث 4892

يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن " حتى فرغ من الآية كلها ثم قال حين فرغ: "أنتن على ذلك" وقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله، لا يدري الحسن[31] من هي، قال: "فتصدقن" وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال"[32].

هذا ما تيسر عرضه من أسباب ومناسبات نزول آي سورة الممتحنة، ولسوف نرى فيما يلي من مفردات البحث أهمية تدبر هذه الآيات في سياق الفهم التطبيقي الذي تنزلت فيه، وآمل أن ييسر الله تعالى عرض ذلك وبيانه فيما بقي من البحث.

المطلب الرابع: الوحدة الموضوعية لسورة الممتحنة:

إن سورة الممتحنة من السور التي تتجلى فيها ملامح الوحدة الموضوعية بحيث لا يغيب موضوع السورة عن أي جزء منها، والبديع حقاً هو ذلك التعدد والتنوع الأسلوبي في تقرير موضوع السورة بحيث تأتلف آياتها جميعاً لتنتظم في موضوعها، ولا يخفى على من له أدنى تدبر وتفكر في هذه السورة أن موضوعها يدور حول محور واحد هو محور الولاء والبراء؛ ذلك المحور الذي تدور في فلكه معالم عقيدة التوحيد والذي تتناول السورة على إيجازها كل محاورها الرئيسية حيث حددت معقد الولاء والبراء وموجباته بكل وضوح وإيجاز، كما تناولت معالم الولاء والبراء في الباطن والظاهر حتى يجتمع إيمان الباطن وإسلام الظاهر كما هو الواجب في نفس الأمر.

ويمكن تلخيص معالم الوحدة الموضوعية لسورة الممتحنة في النقاط التالية:

1) ابتداء السورة وانتهاؤها بنفس الموضوع: ألا وهو النهي عن موالاة الكفار مع التهييج على ذلك بشتى أنواع المؤثرات النفسية والدينية كما سنبين لاحقاً إن شاء الله.

2) تناول السورة لبعض معاقد الولاء الأخرى ودحضها وبيان تهافتها وعدم لياقتها بانتماء المؤمن إليها سواء أكانت صلة رحم أو جاه قوم أو مصلحة مال.

3) اهتمام السورة بالتوجيه إلى الأسوة الحسنة في المجال التطبيقي لعقيدة الولاء والبراء كما هو واضح في موقف إبراهيم عليه السلام من قومه مع التنبيه على مواضع الاستثناء من هذه القدوة ليُعلم أن مدار الاتباع على ما وافق الحق ولو كان المتَّبع نبي من أنبياء الله عز وجل ورسول من أولي العزم من الرسل[33].

---

[31] الحسن بن مسلم راوي الحديث

[32] صحيح البخاري - كتاب التفسير - حديث 4895

[33] ولا يتوهمنَّ أحد أن أنبياء الله ورسله على شيء من الباطل معاذ الله وإنما المقصود ما صوَّبه الوحي من اجتهاداتهم صلوات

4) وضع الضوابط الدقيقة لما استثناه الشرع من جواز التعامل مع فئة مخصوصة من فئة الكفار المتبرأ منها حتى يترسخ في قلوب المؤمنين أن هذا التعامل استثناء من الأصل القاضي بالقطيعة والبينونة ما بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، وهذا من أنفس ما يكون.

5) التأكيد على أن المؤمنين ممتحَنون وأن غاية هذا الامتحان تمحيص ما في قلوبهم حتى يتميز المسلمون في الدنيا بحد أدنى من الأحوال والأقوال يؤمَن معه جانبهم في حماية أمن المجتمع المسلم في حين توكل السرائر إلى ربها، والشاهد أن دعوى الولاء والبراء لا بد لها من حدٍ أدنى من المظاهر السلوكية أقوالاً كانت أم أفعالاً وقد لخصت السورة هذه المظاهر في بنود البيعة كما سنبينه لاحقاً إن شاء الله.

إن الوحدة الموضوعية في سورة الممتحنة لا تقتصر إذاً على التزام السورة موضوعاً واحداً وإنما هي وحدة موضوعية مع شمولية معجزة في تناول هذا الركن العقدي المهم، بحيث يمكن بدون مبالغة أن نعتمد على توجيهات هذه السورة في تحرير وتقرير جميع مفردات عقيدة الولاء والبراء في ديننا الإسلامي العظيم، ولا أبالغ إذا قلت إنه لو ما أنزل الله تعالى على المسلمين في الولاء والبراء غير هذه السورة من القرآن لكفتهم[34].

والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني
مسائل الولاء والبراء في سورة الممتحنة

الولاء لغةً من الولْي: القرب والدنو، والولي: الاسم منه والمحب والصديق والنصير، والولاء: الملك، والمولى: المالك والعبد.. والمحب والتابع، وتولاه: اتخذه ولياً[35]، والبراء لغةً: من برأ يبرؤ برءاً: نَقِهَ من المرض، وأبرأه الله فهو بريء، وبرئ من الأمر يبرأ، وباراه: فارقه[36]، فمعنى البراء يدور حول البعد والمفارقة.

الله وسلامه عليهم ، فوجب التنبيه.

34 هذه الصيغة مستعارة من كلام الإمام الشافعي رحمه الله تعالى حول سورة العصر.

35 القاموس المحيط- الفيروزآبادي

36 السابق

وفي الاصطلاح يمكننا أن نعرف الولاء والبراء بأنه: أعمال وأقـوال بـالقلب واللسـان والجـوارح تـدور حـول محبـة اللـه ورسـوله والمؤمنين وتوليهم ونصرتهم مع مفارقـة الكفـار وحـزبهم في كـل ذلك[37]، ولقـد تقـدم معنـا في الفصـل الماضـي أن رحى سـورة الممتحنة تدور حول هذا المعتقـد الإيمـاني، وهـذا مـا عقـدت هـذا الفصل لبيانه حيث نتدبر آيات هـذه السـورة لنسـتقرئ من خلالهـا معالم منظومة الـولاء والـبراء ونتعـرف على مكانتهـا من القلـوب العامرة بتوحيد الله سبحانه وتعالى.

المطلب الأول: البراءة من مودة الكفار مطلقاً:

لقـد اسـتفتحت هـذه السـورة بتقريـر مسـألة أساسـية هي تمايز الناس إلى فريقين ؛ فريـق مـؤمن باللـه تعـالى وآخـر كـافر بالله سبحانه وتعالى، حيث قال الله تعـالى: "يأيهـا الـذين آمنـوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقـد كفـروا بمـا جاءكم من الحق يُخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خـرجتم جهـاداً في سـبيلي وابتغـاء مرضـاتي تُسـرون إليهم بـالمودة وأنـا أعلم بمـا أخفيتم ومـا أعلنتم ومن يفعلـه منكم فقـد ضـل سـواء السـبيل"[38]، يقـول ابن كثـير رحمـه اللـه: "يعـني المشركين والكفار الذين هم محـاربون للـه ولرسـوله وللمؤمـنين الـذين شـرع اللـه عـداوتهم ومصـارمتهم ونهى أن يُتخـذوا أوليـاء وأصدقاء وأخلاء"[39]، فهذه الآية نهي صريح عن اتخاذ الكفار أوليـاء، ومن المهم ألا يتـوهم المتـدبر لهـذه الآيـة أن في قولـه تعـالى: " عدوي وعـدوكم" وقولـه تعـالى: " تلقـون إليهم بـالمودة " تقييـداً للنهي بهذه الأحـوال، وبيـان ذلـك أن العـداوة المـذكورة لا تقتصـر على الحـرب العسـكرية بـل تشـير إلى مطلـق العـداوة الدينيـة والدليل من القرآن قولـه تعـالى: "فقلنـا يـا آدم إن هـذا عـدوٌ لـك ولزوجـك"[40] يعـني إبليس ومعلـوم أنـه لم تكن حـرب عسـكرية بينهما، وقال تعالى: "وإذ قلنـا للملائكـة اسـجدوا لآدم فسـجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريتـه أوليـاء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً"[41]، فالشاهد أن لفـظ العداوة في القرآن أعم من المجابهة العسكرية وبالتالي لا يقتصـر على الكفار الحربيين، وكذلك الحال في وصف الإلقاء بالمودة فهو ليس قيـداً للنهي وإنمـا حكايـة لغـالب الحـال هدفـه الإمعـان في الإنكار على من تـولى الكفـار من المسـلمين، وكـان معـنى الآيـة:

---

[37] لم أقف فيما تيسرت لي مطالعته على تعريف اصطلاحي بعينه لمفهـوم الـولاء والـبراء وإن كـانت أقـوال العلمـاء تـدور حـول ما ذكـــرت، ولعل النكتة في ذلك أن مســـائل الـــولاء والـــبراء من المسائل البدهية المستقرة في قلـوب المؤمـنين من السـلف فلم يحتج إلى تعريف وهذا مثل مسألة الحاكمية والحكم بغـير مـا أنـزل الله فإنك لا تكـاد تجد لها تعريفـاً أو ذكـراً مستفيضـاً في القـرون الأولى لبداهتها، والله أعلم.

[38] سورة الممتحنة - 1

[39] تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - 109/8

[40] سورة طه - 117

[41] سورة الكهف - 50

كيف تتخذون هؤلاء الأعداء أولياء ثم كيف تتوددون إليهم ؟ والله تعالى أعلم، ثم تأمل كيف عاودت الآية الإنكار والتشنيع على فعل المودة هذا بكل أشكاله، والمودة في اللغة المحبة[42]، والمحبة كما لا يخفى أصلها في القلب ولعل هذا سر قوله تعالى: "تُسرون إليهم بالمودة " مع أن سبب نزول الآية كان عملاً ظاهراً كما تقدم معنا في قصة حاطب حيث كتب إلى قريش يحذرهم مجيء النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا العمل من أعمال الجوارح الظاهرة بل إن حاطباً قد أشهد الله على أن قلبه سليم لله ورسوله وصدَّقه النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فقال: ": "أما إنه قد صدقكم"، قلت: لعل السر في ذلك أن أعمال الجوارح التي تنم عن مودة ظاهرة للكفار لا يمكن أن تصدر إلا عن قلبٍ لهم فيه نكتةٌ ولصاحبه إليهم نوع مودةٍ باطنة، والدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين استأذن: "يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق"، وهنا نكتة دقيقة وهي أن الشريعة حينما تعلق حكماً شرعياً بمناط معين ولا يكون هذا المناط منضبطاً فإن الشريعة تنتقل إلى تعليق الحكم بمظنة هذا المناط، ومثال ذلك المشقة التي هي مناط الرخصة في الفطر فإنها مناط أو حكمة غير منضبطة - أي أنها تتفاوت بين آحاد الناس - ولهذا ترى الشريعة قد علقت الرخصة بمظنة المشقة وهي السفر،قال الإمام محمد أبو زهرة: "وهذا هو الفارق بين العلة والحكمة، فإن الحكمة غير منضبطة، كالمشقة في السفر والضرر في الشفعة، ولكن الشارع ناط الحكم بأمر آخر منضبط هو مظنة تحقق الحكمة فيه "[43]، فكذلك الحال هاهنا فإنه لما كانت علة الكفر والنفاق وجود نوع محبة قلبية باطنة للكفار وكان هذا المناط المكفر غير منضبط علقت الشريعة الحكم بمظنة هذه المحبة القلبية ألا وهي صدور المودة الظاهرة للكفار، فتأمل هذا فإنه دقيق جداً. ولهذا أنت تجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صدق سريرة حاطب - بتصديق الوحي - ولكنه لم يجعل ذلك عذراً في عدم إيقاع حد الردة عليه، وإنما جعل عذره أمراً خاصاً لا يتكرر لأحد من المسلمين من بعد ألا وهو سابقته في الإسلام بشهود بدر، ولما كان هذا العذر لا يتحقق لأحد بعد البدريين عاد الحكم إلى عمومه أعني الحكم الذي صرح به عمر بن الخطاب وأقره عليه النبي صلى الله عليه وسلم إقراراً سكوتياً بيِّناً، وعليه فإن تذييل الآية بقوله تعالى: "ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل" يمثل حكماً على اعتبار الشرع لدلالة الظاهر على الباطن، كما يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: "ومن هنا جعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلاً على ما في الباطن، فإن كان الظاهر منخرماً حُكم على الباطن بذلك أو مستقيماً حُكم على الباطن بذلك أيضاً، وهو أصلٌ عام في الفقه وسائر الأحكام العاديات والتجريبيات، بل الالتفات إليها من هذا الوجه نافع في جملة الشريعة جداً، والأدلة على صحته كثيرة جداً وكفى في ذلك عمدةً أنه الحاكم بإيمان المؤمن وكفر الكافر

---

[42] القاموس المحيط - الفيروزآبادي
[43] أصول الفقه - محمد أبو زهرة - 212

وطاعة المطيع وعصيان العاصي وعدالة العدل وجرحة المجرح"[44].

فالحكم المستخلص من هذه الآية هو تحريم إسرار المودة القلبية والجهر بالمودة الظاهرة للكفار مطلقاً، وأن مجرد كفرهم مقتضٍ للعداوة كما في المواضع التالية من السورة، وإن من مظاهر الجهر بالمودة للكفار إعانتهم على المسلمين برأي أو مشورة أو توجيه مهما ادعى فاعل ذلك سلامة القلب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وهذا حكم جليٌ واضح في الآية، يوضحه سياق الواقعة التي تنزلت بسببها الآية كما تقدم في قصة حاطب، ولا يخفى أن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه حين كاتب الكفار بالخبر كان يعلم من نفسه سلامة قلبه لدين الله ويعلم من الوحي المنزل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرٌ في تلك المعركة حيث بشره الله تعالى بالفتح مرجعَه من الحديبية وبالتالي فهو على يقين أو ظن غالب بأن مكاتبته للكفار لن تؤثر شيئاً في سير المعركة ومع ذلك كله لم تشفع هذه المحترزات لفداحة هذه الخيانة، ولا أظن أحداً ممن يتلبس بأمثال هذه الخيانة له من السابقة في الإسلام ما لحاطب رضي الله عنه ولا عنده من ضمانات عدم تضرر المسلمين بمظاهرته ومودته للكفار ما كان عند حاطب رضي الله عنه، فأين يذهب هؤلاء من وصم الضلالة في قوله تعالى: "ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل".

ولما كان النهي عن مودة الكفار أقرب إلى منهج التخلية والتصفية لم تقف السورة عند حدود تمييز الكفار عن المسلمين والتنبيه على مواطن الخطر فيهم حيث قال تعالى: "إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون"[45]، بل أمعنت السورة في اجتثاث كل الأوهام المتعلقة بمعاقد الولاء والبراء المتنوعة والتي عادة ما تدور حول جلب المصالح ودرء المفاسد، فقال الله تعالى: "لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير"[46]، قال الإمام القرطبي رحمه الله: "لما اعتذر حاطب بأن له أولاداً وأرحاماً فيما بينهم بيَّن الرب عز وجل أن الأهل والأولاد لا ينفعون شيئاً يوم القيامة إن عُصي من أجل ذلك"[47]، قلت: بل ثبت أن هذه القرابات التي يُعصى الله لأجلها تعود بالخسران والوبال على العاصي فكيف يصح في العقل أن يتولى ويحب المرء ما من شأنه أن يجلب له الضرر، فتمحض من ذلك أن المودة لا يمكن أن تنصرف إلا لما يعود بالخير والمصلحة على الإنسان أما ما عدا ذلك فهذيان وتيه وضلال نسأل الله العافية.

المطلب الثاني: الإعلان بالبراءة من الكفر لازم التوحيد:

---

[44] الموافقات - الشاطبي - 164/1
[45] سورة الممتحنة - 2
[46] سورة الممتحنة - 3
[47] الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - 51/18

انتقلت السورة بعدما عالجت الموقف الخطير الذي تلبس به حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى حسم مادته، وهذا في غاية الحكمة والحسن، لأن معالجة ظاهر الأمور دون اجتثاث جذورها لا يغني شيئاً في معالجة أس الداء وأصل البلاء، ولئن كان لحاطب رضي الله عنه مزية شهادة الوحي على صفاء قلبه من مناط الكفر وسابقة بدر في مغفرة زلته فإن هذا لا يتأتى لأحد بعده لا سيما وأن السورة قد بددت أوهام عذره الذي اعتذر به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل إن اعتذاره رضي الله عنه أكبر دليل على أن إعانة الكفار أمارة كفر وردة مترسخة عند صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم تأمل معي قوله رضي الله عنه: "ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام" [48]، والشاهد أن السورة بعد نزول آياتها الأولى لمناسبة الموقف فإن ما تلا من آياتها قد نزل لحسم مادة الزيغ والزلل وتقرير مبدأ الولاء المطلق لله تعالى والبراء المطلق من كل ما سواه، ولئن افتقر تقرير هذا الأصل لموقف يتنزل عليه أو مناسبة يتحدث عنها وقت النزول فإن السورة قد طرحت هذا الأصل في سياق عملي تطبيقي بديع من خلال موقف أبي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه مع قومه، فلنتدبر:

قال تعالى: "قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم. لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد"[49]

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: "لما نهى الله عز وجل عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه السلام وأن من سيرته التبرؤ من الكفار؛ أي فاقتدوا به وأتمّوا إلا في استغفاره لأبيه"[50]، وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه"[51]، قلت: وهذه القصة التي أمرنا الله تعالى بالاقتداء بنبيه وأتباعه المؤمنين فيها يجب تدبرها جيداً لعزة معانيها وحسن تقريرها، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: وجوب الإعلان باللسان عن استبراء القلب من الكفر:

لقد تقدم معنا في قصة حاطب أن مناط الإنكار والتشنيع كان على سلوكه الظاهر الذي اعتبر مظنة ميل القلب ومحبته

[48] سبق تخريجه
[49] سورة الممتحنة - 4-6
[50] الجامع لأحكام القرآن - 51/18
[51] تفسير القرآن العظيم - 112/8

للكفار، ولما قررت السورة تحريم ذلك كان مناسباً أن تقابلَ منع إظهار المودة للكفار الملازم عادةً لمودتهم في الباطن بمطالبة المؤمنين بإظهار نقيضه من التبرؤ منهم والإعلان ببغضهم تعبيراً عما يجب أن يستقر في الباطن من ذلك، وهذه المقابلة في غاية الحسن لأن القلب إما أن يكون مشغولاً بحب الله أو حب عدوه، فإذا كان الأول فقد وُجد الدافع على الإعلان بذلك باللسان والجوارح، وإذا كان الدافع موجوداً والمانع مفقوداً امتنع ألا تظهر مظاهر حب الله القولية والفعلية، كما أن العكس صحيح فإن الإعلان بمظاهر المودة القولية والفعلية للكفار من غير إكراه معتَبَر لا معنى له سوى ضعف الدافع القلبي المتولد عن حب الله أو وجود المانع من إعلان ذلك الحب، وكلا الأمرين لعمر الحق داء خطير فإن عدم تمكن محبة الله في القلب لا يكون إلا وفي القلب شاغل عن الله وهي المحبة الشركية كما أن توهم مانع يقوى على حبس محبة الله في القلب وعدم الإعلان بها نقص في تحقق موجبات حب الله في قلب العبد، أما من اطمأن قلبه بحب الله فلا يمكن ألا يباشر إلى إعلان مظاهر هذا الحب بالقول والعمل كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا نظير امتناع الحكم للمرء بالإسلام مع امتناعه عن قول لا إله إلا الله فإن من وقر الإيمان في قلبه وفقد المانع عن إدلائه بالشهادة على ذلك يمتنع عليه ألا يعلن بتلك الشهادة ويمتنع الحكم له بالإسلام بدون تلك الشهادة القولية، تأمل قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر"[52]، ثم قال ناقلاً عن أبي ثور في رده على المرجئة: "اعلمْ يرحمنا الله وإياك أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح، وذلك أنه ليس بين أهل العلم خلاف في رجل لو قال: أشهد أن الله عز وجل واحد وأن ما جاءت به الرسل حق وأقر بجميع الشرائع، ثم قال: ما عقد قلبي على شيء من هذا ولا أصدق به" أنه ليس بمسلم، ولو قال: المسيح هو الله وجحد أمر الإسلام ثم قال: "لم يعقد قلبي على شيء من ذلك " أنه كافر بإظهار ذلك وليس بمؤمن، فلما لم يكن بالإقرار إذ لم يكن معه التصديق مؤمناً، ولا بالتصديق إذا لم يكن معه الإقرار مؤمناً، حتى يكون مصدقاً بقلبه مقراً بلسانه.."[53]قلت: أي مع العمل بالجوارح أيضاً، والشاهد هنا امتناع انعقاد الإيمان ولوازمه - كالمحبة والولاء القلبيين - في القلب مع عدم ظهور ذلك في قول اللسان وعمل الجوارح بحسبه، ولهذا كان التوجية القرآني للتأسي بقول إبراهيم عليه السلام وأتباعه المؤمنين لقومهم: "إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم"، قال ابن كثير: "أي كفرنا بدينكم وطريقتكم"[54]، وهذا الإعلان الظاهر كله بقول اللسان كما لا يخفى.

ثانياً: وجوب بدو العداوة والبغضاء للكفار:

---

[52] مجموع الفتاوى - ابن تيمية - 130/7
[53] السابق - 242/7
[54] تفسير القرآن العظيم - 112/8

وهـذا ظـاهر في قولـه تعـالى: "وبـدا بيننـا وبينكم العـداوة والبغضاء أبداً "[55] ولعل هذه الآيـة ممـا يُشـكل على البعض لتـوهم المبادرة بالعداوة على الغير، والحقيقـة أن هـذا وهمٌ باطـل ولـولا انتشـاره بين كثـير من المسـلمين لمـا اسـتحق عنـاء الـرد عليـه، وتحرير المسألة وسرها يعود إلى ما استفتحت به السورة آنفاً من قوله تعالى في وصف الكفار: "عدوي وعدوكم"[56]، فلقد أثبت الله تعـالى وصـف العـداوة للكفـار ابتـداءً كمـا أثبت أن هـذه العـداوة متوجهـة إلى اللـه سـبحانه وتعـالى ورتب على ذلـك توجههـا إلى المسلمين، يقول الشيخ محمد عطية سالم: "والـذي يظهـر واللـه أعلم أن التقديم لغرض شرعي وبلاغي وهـو أن عـداوة العبـد للـه هي الأصل وهي أشد قبحاً فلذا قُدمت، وقبحها في أنهم عبدوا غير خـالقهم وشـكروا غـير رازقهم وكـذبوا رسـل ربهم وآذوهم"[57]، ثم جـاء قولـه تعـالى: "يخرجـون الرسـول وإيـاكم أن تؤمنـوا باللـه ربكم"[58] ليؤكـد اسـتطالة الكفـار على المسـلمين لا لشـيء إلا لكونهم آمنوا بالله فأكد ذلك أن هؤلاء معـادون للـه تعـالى ابتـداءً وهذا هو الترتيب الصحيح لهذه العداوة فالمؤمنون لم يبادروا أحداً بالعدوان كما أن اللـه تعـالى لم يبـادر عبيـده إلا بالهـدى والرحمـة فلما أبَقَت هذه الفئة الضالة وتمردت على خالقها وشتمته وآذتـه - كما جاء في الحـديث الصـحيح - كـان مقتضـى العـدل رد العـداون بمثله، ولهذا فإن قوله تعالى: "وبدا بيننا وبينكم العـداوة والبغضـاء أبـداً "[59] إنمـا هـو من جنس المعاملـة بالمثـل إذ أن هـذه العـداوة والبغضاء عداوة دينية لا غير وهي بهذا الاعتبار محمودة مطلقاً كما أنها بهذا الاعتبار يجب أن تنضـبط بضـوابط الشـرع بحيث لا يكـون لحظ النفس فيها مدخلاً، وهذا واضـح في الغايـة الـتي تنتهي إليهـا هذه العداوة حيث قـال تعـالى حاكيـاً حـال إبـراهيم عليـه السـلام: "حتى تؤمنوا بالله وحده " فهذه الغاية الـتي تنتهي عنـدها العـداوة تؤكـد على طبيعـة العـداوة الدينيـة، وكـان سـياق الآيـات ينبـه المسلمين: أليس هؤلاء الذين ألقيتم إليهم بالمودة أعداء اللـه عـز وجـل الـذين كفـروا بـه وأعـداؤكم الـذين أخرجـوكم من ديـاركم وأهليكم وأموالكم لا لشيء إلا لإيمـانكم باللـه عـز وجـل ولـو أنهم تمكنوا منكم لأثخنوا فيكم ولاستطالوا عليكم بالقول واليد، وهـؤلاء هم هم الـذين عـادوا اللـه من قبـل وعـادوا رسـله وأنبيـاءه ومنهم إبـراهيم عليـه السـلام وقومـه إذ دعـاهم إلى التوحيـد فقـابلوه بالسـخرية والتهديـد بـالرجم ثم التحريـق بالنـار وهـو يـدعوهم ويستغفر لمن ظن أنه يؤمن منهم فلما استقر حـال عـداوتهم للـه تبرأ منهم لِحَق ربه لا لحظ نفسه فكيف توالـون هـؤلاء بميـل قلب أو بقول لسان أو بفعـل جارحـة، ألا فلتلزمـوا سـنة أبيكم إبـراهيم ولتعلنوها براءة من الكفار كما أعلنتموها براءة من الكفر.

ثالثاً: وجوب توطين النفس على الصبر على الأذى في الله:

---

[55] سورة الممتحنة - 4
[56] سورة الممتحنة - 1
[57] أضواء البيان - الشنقيطي وتتمته لمحمد عطية سالم - 317/5
[58] سورة الممتحنة - 1
[59] سورة الممتحنة - 4

إن كلمة التوحيد التي ميزت الناس إلى فريقين مؤمن وكافر مناط ابتلاء وتمحيص واستدراج وتغرير؛ فأما الابتلاء والتمحيص فللمؤمنين يستخرج الله تعالى عبودية هذا الفريق بتخليص توحيدهم وتجريده عن كل حظوظ النفس وعلائق الدنيا فيتميز من أسلم لغاية الدنيا ممن أسلم لحب الله وحده، وأما الاستدراج والتغرير فللكفار يمكنهم الله تعالى تارة من إلحاق بعض الأذى بعباده المسلمين ليغري بهم ويوهمهم أنهم على شيء فتزيد أثقالهم من الآثام التي يعذبون بها في الآخرة جزاء إعراضهم عن هدى الله تعالى وأوامر رسله في الدنيا، ولا شك أن إغراء الكفار بالمسلمين يزداد كلما أعلن المسلمون بمكنون قلوبهم من التوحيد والحب لله تعالى، فكان من المناسب بعد أن وجهت الآية الكريمة إلى حسن الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في الإعلان القولي والعملي بالتبرؤ من الكفار وإبداء بغضهم أن توجه المسلمين إلى العدة اللازمة لمواجهة الأذى المترتب على هذا الإعلان، وهذا غاية الحسن في الترتيب فقال الله تعالى: "ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم"[60]، فهذه مقومات الصبر وهذه عدة المواجهة، قال الإمام القرطبي رحمه الله: "(ربنا عليك توكلنا) هذا من دعاء إبراهيم عليه السلام وأصحابه، وقيل: علم المؤمنين أن يقولوا هذا، أي تبرءوا من الكفار وتوكلوا على الله وقولوا: (وعليك توكلنا) أي اعتمدنا (وإليك أنبنا) أي رجعنا (وإليك المصير) لك الرجوع في الآخرة، (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) أي لا تُظهر عدونا علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتتنوا بذلك، وقيل: لا تسلطهم علينا فيفتنونا ويعذبونا، (واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم)"[61]، قلت: لقد جمعت هذه الآيات من روائع الخضوع والعبودية لله عز وجل ما يحتاج إلى إفراده بالتصنيف ولكن أعرج على بعض الأمور فيما يلي:

1) عدة التوكل: وهذا في غاية المناسبة لسياق الحال، إذ لما تبرأ المؤمنون من الكفار لاجتماع دواعي العداوة من جهة ولانتفاء دواعي الموالاة من جهة أخرى حيث إن الكفار لا يملكون للمؤمنين ضراً ولا نفعاً تصرفه أو تجلبه موالاتهم كان من المناسب أن يتبرأ المؤمنون من حولهم وقوتهم إلى الله عز وجل لأنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فلما تبرءوا من الكفار ثم تبرءوا من حول أنفسهم لم يبق إلا جناب الله تعالى يلوذون به، فاجتمعت البراءة المحمودة من المخلوقين مع التولي المحمود للخالق فكان ذلك أقوى معتمد وأحرى مستند للمؤمنين، فتأمل هذا فإنه في غاية الحسن.

2) عبادة الإنابة والرجوع: والإنابة عبودية يتعبد الله تعالى بها في الدنيا في حين أن الرجوع هو نفس المآل إلى الله تعالى في الآخرة، فقوله تعالى: "وإليك أنبنا وإليك المصير" هو غاية اليقين من هذه الثلة المؤمنة بقوله تعالى: "لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون

---

[60] سورة الممتحنة - 4-5
[61] الجامع لأحكام القرآن - 52/18

بصير"[62] فلما تيقن هؤلاء أن المصير والرجوع إلى الله تعالى في المآل حيث لا ينفع مال ولا بنون، انقطعوا عن هذه العلائق الدنيوية ولم يلتفتوا إليها وعادوا إلى ربهم خاضعين متذللين يلوذون بجنابه العظيم ويرجون عنده أسباب العزة والتمكين، فالمخلوق عندهم وجوده وعدمه سواء، كما قال ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: "أي توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك، (وإليك المصير) أي المعاد في الدار الآخرة"[63].

3) عدة الدعاء: إن التزود بهذه العبادة زاد رئيسي لمن أراد أن يمضي في هذا الطريق، طريق التبرؤ من الكفر وأهله مهما كان وعيدهم ومهما كان تهديدهم، ولما كان المؤمن يعلم ضعف نفسه ويخشى على جوهرة التوحيد في قلبه أن تخدشها العوادي فإنه لن يجد لنفسه بداً من الدعاء إلى الله عز وجل ليصرف عنه هذا السوء، وتأمل الأدب الجم في صيغة الدعاء التي سنها لنا إبراهيم عليه السلام ورضيها الله تعالى لنا أسوة وقدوة: "ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم"[64]، حيث اشتمل الدعاء على الإقرار بربوبية الله عز وجل وبافتقارهم إليه سبحانه في غفران ذنوبهم ثم لما عرضوا مسألتهم لم يتطاولوا على جناب الله عز وجل فيقولوا: اللهم لا تمتحنا ولا تمحصنا ولا تختبرنا، لم يقولوا ذلك لأن ذلك ليس إليهم بل إلى الله وحده هو أعلم وأحكم بما فيه صلاح نفوس عباده، ولكنهم عرضوا مسألتهم عرض المشفق على نفسه المنطرح على عتبة سيده ومولاه يخافون أن يصل بهم الامتحان والتمحيص إلى ما لا يطيقون معه ثباتاً على الحق، فهم يخافون من أن تزل قدمهم بعد ثبوتها ولا يعنيهم بعد ذلك أن تفنى وتضمحل أجسادهم في سبيل الله عز وجل، لسان حالهم قول الشاعر:

لئن ساءني أن نِلتني بمساءةٍ قد سرَّني أني خطرتُ بِبالكا

وقول الآخر:

إن كان سرَّكمُ ما قال حاسِدُنا فما لجرحٍ إذا أرضاكم ألمُ

فهذا دعاء إشفاق وافتقار إلى الله تعالى وتبرؤ من كل حول وقوة إلا حول الله وقوته، قال مجاهد: "معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا"[65]، فهمُّهم الحقيقي هو ظهور الحق لا الضن بأجسادهم أن تبذل في سبيل الله، وغايتهم ظهور الحق مهما كلف الأمر وغاية ما يخشونه أن يلبّس على الحق فيظهر أهلُ الباطل باطلهم بصورة تفتن الناس عن مراد الله عز وجل، ولعمر

---

[62] سورة الممتحنة - 3
[63] تفسير القرآن العظيم - 112/8
[64] سورة الممتحنة - 5
[65] تفسير القرآن العظيم - 112/8

الحق إن هذا غاية التفاني في خدمة الحق والانتصار لكلمة الله سبحانه وتعالى، فتأمل.

4) مناسبة أسماء الله تعالى الواردة للموقف:

وهذه أيضاً مناسبة بديعة إذ لما كان موقف الفتنة الذي يُخشى معه ظهور الكفار على المسلمين موقفاً قد يُستشعر فيه نوع مهانة وانكسار ناسب أن يدعو الله تعالى باسمه "العزيز"،قال ابن كثير في قوله تعالى: "إنك أنت العزيز" أي: الذي لا يُضام من لاذ بجنابك، "الحكيم" في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك.اه[66]، قلت: أي إنهم بعد دعائهم وعرض مسألتهم أذعنوا لله تعالى بأنه هو العزيز بذاته فهم لا يرومون عزةً عند من سواه، وهو الحكيم فيما يأمرهم به شرعاً من التبرؤ من الكفار وفيما يقدره عليهم قدراً من أنواع الابتلاءات ليتبين أن دعاءهم ليس من جنس الاعتراض على أمر الله الشرعي ولا القدري وإنما هو دعاء عبادة وخضوع وذلة وانكسار للعزيز الحكيم، وهذا في غاية المناسبة لسياق الموقف.

رابعاً: تحرير القصد والغاية من عبادة الولاء والبراء:

بعد أن وضعت السورة أنموذجاً يحتذى في سلوك إبراهيم عليه السلام مع قومه وحررت موضع التأسي من ذلك جاءت الآية بعد لتؤكد على موضع التأسي وهو التبرؤ من الكفار وإبداء العداوة والبغض الدينيين لهم من جهة، ولترتقي بالمسلمين إلى أسمى المقاصد المرجوة من وراء هذا الاقتداء والتأسي، فقال تعالى: "لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد"[67]، قال ابن كثير رحمه الله: "وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا هي الأولى بعينها"[68]، قلت: لعل التركيز في الآية الأولى كان على تحرير موضع التأسي في حين جاءت الآية الثانية للتأكيد على ضرورة هذه التأسي فجاءت لام التوكيد مع (قد) مبالغةً في التوكيد في هذا الآية، ثم إنتقلت مباشرة إلى بيان القصد من هذا التأسي وهذا إشارة إلى أن موضوع الأمر بالتأسي ليس للتخيير بل هو طريق لازم لمن أراد أن يلاقي الله تعالى في الآخرة على حالة يصلح فيها معاده، ثم نبهت الآية على أنه ليس وراء ذلك إلا الخسران المبين كما هو واضح من لهجة التهديد في قوله تعالى: "ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد"، فالتولي هنا الإعراض عن أوامر الله عموماً، ويحتمل أيضاً تولي الكفار وموالاتهم[69]، والمناسبة بين سياق الآية واسم الله تعالى الغني الحميد جلية لمن تدبر؛ فإن الأمر بتولي المؤمنين لله والتبرؤ من الكفار ليس لافتقار الله تعالى إلى خلقه تقدست ذاتُه العلية عن ذلك، فإن الله هو الغني بذاته لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه

---

[66] تفسير القرآن العظيم - 113/8
[67] سورة الممتحنة - 6
[68] تفسير القرآن العظيم - 113/8
[69] أضواء البيان - 322/5 بتصرف يسير

طاعة الطائعين، وهو سبحانه الحميد بذاته الموصوف بالجميل الاختياري غير مفتقر لما سواه جل في علاه. والحقيقة إن لهجة التهديد واضحة في هذه الآية كما هي واضحة في القرآن كله لمن أعرض عن أمر الله بعد أن جاءه ولمن أعرض عن هدى الله بعد أن أرشده الله تعالى إليه، فلا نجاة للعبد ولا فلاح في معاده إلا بتولي الله عز وجل وحزبه من المؤمنين وبالتبرؤ من أعدائه سبحانه وتعالى وقطع كل صلة معهم مهما أغرت المصالح الدنيوية بإبقاء هذه الصلات أو تمكينها.

خامساً: تبعُّض الولاء والبراء:

إن من تدبر في اختيار قصة إبراهيم عليه السلام مثالاً يحتذى في باب الولاء والبراء مع ما عرضته الآية الكريمة من الإستثناء في الأمر بالتأسي فيه نكتةٌ دقيقة يجب التمعن فيها لأهميتها، ذلك أنه قد اجتمع في إبراهيم عليه السلام أمران ؛ أحدهما أقره عليه الوحي وأثنى عليه وهو تبرؤه من الكفار، والثاني موعدة إبراهيم أبيه بالاستغفار وهو ما أنكره الوحي واستثناه من التأسي، والنكتة في الأمر أن تلبس إبراهيم عليه السلام بهذا الفعل الذي أنكره الوحي لم يمنع من الثناء على فعله الآخر المحمود والأمر بالاقتداء به، وكأن هذه إشارة إلى أن الفرد قد يجتمع فيه ما هو محمود شرعاً وما هو مذموم شرعاً فلا يمنع الأخير من تولي هذا الفرد بداعي الاجتماع على الأول، وأعني بالفرد بطبيعة الحال المسلم، ومن هنا يتقرر مبدأ مهم في مسائل الولاء والبراء ألا وهو تجزُّؤ وتبعُّض الحب والموالاة الإيمانية بالنسبة إلى آحاد المسلمين؛ حيث أنه إذا ثبت عقد الإيمان المجمل لفرد من الأفراد ثبتت له جملة من الحقوق منها وجوب موالاته وحبه في الله لأجل ذلك الحد الأدنى من الإيمان الذي تحقق لديه، وهو المشترك الإيماني الأدنى بين كل من يصح نسبته إلى عقد الإيمان المجمل، وعلامات هذا الانتساب علاماتٌ ظاهرة يدخل بها العبد في ذمة الله تعالى كما في الحديث عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تُخفروا الله في ذمته"[70]، وقد قال تعالى: "ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا"[71]. وإن من جملة ما يثبت بهذا العقد الموالاة القائمة على أساس رابطة الأخوة الإيمانية بغض النظر عن أفعال وأقوال المكلف من جنس المعاصي غير المكفِّرة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه في آية القصاص: "فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف"[72]"[73]، وقال الشيخ العلامة ابن عثيمين رحمه الله في الشرح: "يعني أن الأخوَّة بين المؤمنين ثابتة ولو مع المعصية،

---

[70] صحيح البخاري - كتاب الصلاة
[71] سورة النساء - 94
[72] سورة البقرة - 178
[73] العقيدة الواسطية - ابن تيمية

فـالزاني أخ للعفيـف، والسـارق أخ للمسـروق، والقاتـل أخ للمقتول"[74]. قلت: ثم يتفاضل هذا الحب والولاء زيادةً ونقصاناً بحسب ما يظهر من الفرد من أعمال ظاهرة موافقة للشرع، وقد يجتمع له مع ذلك تبرؤ وبغض في الله لما قد يظهر منه من أعمال مخالفة للشرع، فيجتمع الحب في الله والبغض في الله في نفس الفـرد فيُحَب من جهـة طاعتـه ويـوالى عليهـا ويُبغض من جهـة معصيته لله عز وجل ويتبرأ منها، كما قـد يجتمـع فيـه بـرٌ وفجـور، وسنةٌ وبدعة، وإيمانٌ ونفاق (أعني الفجـور والبدعـة والنفـاق غـير الناقل عن الملة)، وتأمل معي حديث عبد الله بن عمرو أن النـبي صلى الله عليه وسلم قال: "أربع من كُن فيه كـان منافقـاً خالصـاً ومن كـانت فيـه خَصلة منهن كـانت فيـه خصـلة من النفـاق حـتى يدعها؛ إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"[75]، وحديث أبي ذر لما ساب رجلاً فعيره بأمه فقال له النـبي صلى الله عليه وسلم: "يـا أبـا ذر، أعيرتـه بأمـه؟ إنـك امـرؤ فيـك جاهلية"[76]، وقد تـرجم الإمـام البخـاري لهـذا الحـديث بقولـه: بـاب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا الشرك[77]، وهذا الفعل المنسـوب إلى الجاهليـة قـد وقـع ممن نقطـع بإيمانـه وعدالته - أعني أبـا ذر رضـي اللـه عنـه - ومـع ذلـك اجتمعت فيـه المعصية مع الطاعة، كما اجتمع في الحديث السـابق النفـاق غـير الاعتقادي مع الإيمان، والأمثلة كثيرة وإنما أردنا التنبيه ببعضها.

والشـاهد هنـا أنـه يمكننـا أن نستشـف مبـدأ تبعض الـولاء والبراء من صيغة عرض قصة إبراهيم عليه السلام مـع قومـه، مـع مراعاة الأدب مع نبي الله صلوات الله وسلامه عليه حيث إن اللـه تعالى قد بين عذره ولم يبق لنا إلا الموالاة الكاملـة لأبينـا إبـراهيم عليه السلام بعد أن تحرر موضع الشبهة وأكدت الآيـة الثانيـة على وجوب التأسي به صلوات الله وسـلامه عليـه كمـا تقـدم معنـا في البند السابق، وإنما أردنا أن نبين هذا الملحظ لأننا أحوج مـا نكـون إليه اليوم مـع إخواننـا في الـدين حيث ليس لأحـد بعـد أنبيـاء اللـه ورسـله عصـمة وحيث انقطـع الـوحي فلم يعـد يعـول على تبرئـة الوحي للبواطن واقتصر الأمر على الحكم بالظواهر.

المطلب الثـالث: تحريـر منـاط العـداوة بين المسلمين والكفار:

لقد أمعنت السورة في تحرير موضع الـنزاع ومنـاط العـداء مـع الكفـار، فأكـدت في بدايـة السـورة على أن العـداوة الأصـيلة لهؤلاء مبنية على عداوتهم لله تعالى كما بينا سـابقاً، كمـا بينت أن صـلات القربـة والمصـالح لا تسـتجلب نفعـاً ولا تـدفع ضـراً يـدعو المسـلمين إلى مراعاتهـا في تـبرؤهم منهم، ولمـا كـان ذلـك كلـه قائماً على التبرؤ والقطيعة سلكت السورة مسـلكاً بـديعاً آخـر في تحرير مناط العداوة وذلك في قوله تعالى: "عسى اللـه أن يجعـل

[74] شرح العقيدة الواسطية - ابن عثيمين
[75] صحيح البخاري - كتاب الإيمان
[76] المرجع السابق
[77] المرجع السابق

بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم"[78]، حيث بينت هذه الآية أن الأمر لا يقتصر على التبرؤ من الكافر فحسب بل إنه يدور مع مناط العداوة الدينية وجوداً وعدماً فحيث وجد العداء الديني بالكفر ثبتت البراءة وانتفت المودة، وحيث انعدمت العداوة الدينية بالانقياد لدين الحق انتفت البراءة وثبتت المودة، ولقد كان منهج السورة في تقرير هذه المسألة منهجاً بديعاً حيث جاءت هذه الآية بعد اشتداد مشاعر المسلمين وانفعالاتهم ضد أعداء الله وأعدائهم وبعد ست آيات متتابعات تأتي كل منها بعد الأخرى على أي ذريعة من ذرائع المودة للكفار فإذا بهذه الآية تقلب المسألة رأساً على عقب وترجي المؤمنين رجاءً أكيداً في تحول هذه العداوة إلى مودة، لأن (عسى) من الله إيجاب وتأكيد[79]، وهنا لا بد أن يقع السؤال في ذهن السامع: كيف تنقلب العداوة إلى مودة؟ ويكون الجواب في قوله تعالى: "والله غفور رحيم" يغفر لمن أسلم سابقة كفره وشركه ويدخله في رحمته بتوفيقه للإسلام، (لأن المودة المتوقعة بسبب هداية الكفار، والهداية منحة من الله تعالى)[80]، فإذا كان الأمر كذلك تقرر ورسخ في النفوس أن الموالاة والبراءة مدارها على أمر واحد هو الدين ؛ فمهما يكن من ضغائن وعداوات مردها إلى الدنيا فإنها تسقط تحت الأقدام بمجرد إسلام الكافر، وتأمل مصداق هذا فيما جرى يوم الفتح، هذه هند بنت عتبة التي كانت قد مثلت بسيد الشهداء حمزة رضي الله عنه عم الرسول صلى الله عليه وسلم ومضغت كبده وفعلت الأفاعيل تأتي يوم الفتح مبايعةً مسلمةً فيسقط حظ النفس أمام كلمة التوحيد، ويتقدم الولاء الإيماني على كل مصالح الدنيا وحظوظ النفس، وحري بمثل هذه المبادئ أن تجري على شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم الأمة أن لا مكان للحقد ولا للثأر ولا لنفس مع حق الله عز وجل، وأن مدار الأمر كله على النفي والإثبات أو التبرؤ والموالاة التي أثبتتها هذه الكلمة؛ لا إله إلا الله، ولما كان الأمر كذلك كان من المناسب جداً أن أناطت الآية أمر الهداية كله بقدرة الله تعالى وذلك في قوله: "والله قدير"، قال ابن كثير رحمه الله: "أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة فتصبح مجتمعة متفقة"، قلت: بل انظر إلى أعجب من هذا مما يفعله الإسلام في النفوس حيث يترسخ معقد الولاء في كلمة لا إله إلا الله، ففي الحديث أن أبا سفيان رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا نبي الله، ثلاث أعطنيهنّ. قال: نعم. قال: عندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها. قال: نعم. قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك. قال: نعم. قال: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين. قال: نعم."[81]، فها هو عدو المسلمين بالأمس قد دخل في حزب الله وانقلب ولاؤه لأعداء الله الكفار براءةً منهم وحرباً عليهم، وما

---

[78] سورة الممتحنة - 7
[79] أضواء البيان - 322/5 - بتصرف
[80] السابق
[81] صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - حديث 2501

الذين تغير في أبي سفيان يوم فتح مكة حتى يتحول هذا التحــول، إنه الإسلام لا غير.

وهنا نكتة دقيقة وهي أن تحرير المسألة على النحو المتقدم هـو الكفيـل ببقـاء الـدافع عنـد المسـلمين لنشـر رسـالة الإسـلام والحرص على هداية البشرية ولو كـانوا أعـداءهم، ولئن كـان اللـه تعالى قـد بشّـر الرعيـل الأول بإسـلام إخـوانهم وآبـائهم وأمهـاتهم وأبنـائهم وانقلاب عـداوتهم مـودةً بـدخول هـذا الـدين، وهم الـذين كانوا بالأمس يتربصون للدعوة الإسلامية ليقضوا عليها في مهــدها وليئدوها قبل اشتداد عودها، فـإن هـذا الرجـاء في إسـلام الغـير لا ينقطـع مـا دام أن اللـه تعـالى هـو القـدير وهـو الغفـور الـرحيم، فلنحرص إذاً ونحن في ذروة القطيعـة والعـداء في الـدين على أن نبلـغ كلمـة التوحيـد خالصـةً صـافيةً نقيـةً من كـل حظـوظ النفس وشهواتها، وهل روعة الإسلام إلا في ذلك؟

المطلب الرابع: ضوابط التعامل مع الكفار:

لقد كان جيل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم جيلاً فريــداً يسمع ليطيع، ويؤمَر لينقاد، ويُزجَر لينتهي، وما كـانوا ليـترددوا في إعمـال معـاني آيـات التنزيـل وتطبيقهـا أوسـع مـا يكـون الإعمـال وأحسن ما يكون التطبيق، ولقد تقدم معنـا في سـبب نـزول هـذه الآية قصة أسـماء بنت أبي بكـر رضـي اللـه عنهمـا مـع أمهـا حيث قدمت عليها في المدة التي كانت فيهـا المهادنـة بين رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم وبين كفـار قـريش فأهـدت إلى أسـماء بنت أبي بكر الصديق قرطاً وأشياء فكرهت أسماء رضي اللـه عنهـا أن تقبل منها حتى أتت رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم فـذكرت ذلك له، وهذا لعمر الحق غاية التحـري والانقيـاد لأمـر اللـه تعـالى في قطيعة الشرك والكفر وأهلـه مهمـا كـانت الصـلات والعلائـق، وهكذا نزل قوله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقـاتلوكم في الـدين ولم يخرجـوكم من ديـاركم أن تـبروهم وتقسـطوا إليهم إن اللـه يحب المقسـطين. إنمـا ينهـاكم اللـه عن الـذين قـاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظـاهروا على إخـراجكم أن تولـوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون"[82]، وتمثل هاتـان الآيتـان منهجـاً عملياً شرعياً للتعامل مـع الكفـار لا بـد من الوقـوف على معالمـه وتحرير ضوابطه، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: معاملة الكفار المسالمين:

تقدم معنا في أسـباب الـنزول كيـف كـان مجيء قتيلـة (أم أسماء) وهي مشركة إلى ابنتها أسماء رضي الله عنها وكيف أنهـا كانت متوددة لها بالهدية ونحوها، وكيف أن أسماء رضي الله عنهـا استفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم في كيفية التعامل معها بما يشـعر أن الصـحابة رضـوان اللـه عليهم قـد فهمـوا من الأمـر بالتبرؤ من الكفار مطلق القطيعـة، فـنزلت الآيـة لتحـرر المسـألة تحريراً دقيقاً، فجعلت للكفار المسالمين صفات تفسح للمسـلمين

[82] سورة الممتحنة - 8-9

مجالاً محدداً للتعامل معهم في شئون الحياة اليومية، وواضح أن هدف هذا التعامل هو عرض الإسلام على هذه الفئة التي يرجى هدايتها لما لم تناجز المسلمين الحرب - مع ملاحظة استقرار العداو الدينية في نفس الأمر لمجرد الكفر - وحددت الآية صفة هذه المسالمة في ودع الكفار قتال المسلمين وودع إخراجهم من ديارهم وتشريدهم منها، فهؤلاء رخص الله تعالى في التعامل معهم استثناءً من الأصل، وذكر ابن كثير أن المقصود بهؤلاء النساء والضعفة[83]، في حين ذكر الإمام القرطبي أن هذه رخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم[84]، ورجح الإمام القرطبي رحمه الله تعالى أن هذه الآية محكمة خلافاً لمن ادعى النسخ بآية السيف، وهو قول قوي وأكثر المفسرين عليه كما نقله رحمه الله تعالى، ولقد انتصر لهذا القول الشيخ محمد عطية سالم في تتمة أضواء البيان [85]، والحقيقة إن دعوى النسخ ضعيفة لا سيما وأن الآية لا تعارض بينها وبين غيرها مما ادعي النسخ به، ذلك أن واقع الحال شاهد على وجود هذه الفئة، وإن أصول الشريعة دالة على وجوب المعاملة بالقسط والعدل، فمن بقي على عداوته الدينية ولم يتجاوز بها إلى حد مناجزة المسلمين بالسيف كان له حظه من البغض القلبي والعداوة الدينية دون اعتداء عليه بالسيف، فالبغض القلبي لهؤلاء انتصار لحق الله تعالى وكف اليد والسيف عنهم معاملة بالمثل لما كفوا عنا، وهذا غاية الإنصاف، بقيت مسألة خطرت لي في هذا الأمر وهي أن أصول الشريعة دالة على التبرؤ والقطيعة بيننا وبين الكفار وأن ما استثناه الشرع يجب الاقتصار فيه على ما ورد وعدم الاسترسال فيه، ومن يتأمل قصة أسماء رضي الله عنها مع أمها - وهي سبب نزول الآية على ما ترجح - قد يحسن به أن يقصر هذا الاستثناء على أقرباء المسلم من الكفار، وإن نصوص الشرع تقوي هذا المسلك منها الحديث المتقدم مع أسماء رضي الله عنها، ومنها قوله تعالى: "وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً"[86] فهذه الآية في الأبوين، وتأمل كيف ترجم الإمام البخاري رحمه الله تعالى لحديث أسماء المتقدم مع أمها بترجمة: "باب صلة الوالد المشرك" وهذا في غاية التحري والفقه منه رحمه الله تعالى حيث اقتصر على الوارد في الاستثناء من الأصل في التعامل مع الكفار وهو القطيعة والبراءة، والسر في هذا الاستثناء واضح في رجاء إسلام قرابات المسلم حين يُظهر لهم جانب اللين والموادعة تأليفاً لقلوبهم لا سيما وأن في الجبلة والطبع من الدوافع ما هو كفيل بتحري وطلب هدايتهم، وعليه فالذي يبدو والله تعالى أعلم أن الورع قد يكون في الاقتصار في هذه الرخصة على قرابات المسلم - لا سيما الوالدين - سداً لذريعة الاسترسال مع الكفار ووقوفاً مع ما ورد به النص وإعمالاً لباقي النصوص والأصول، والله تعالى أعلم.

---

[83] تفسير القرآن العظيم - 115/8
[84] الجامع لأحكام القرآن - 53/18
[85] أضواء البيان - 323-325/5
[86] سورة لقمان - 15

ثانياً: معاملة الكفار المقاتلين:

وهذا هو الصنف الثاني من الكفار الذين لا تجوز موالاتهم بحال من الأحوال، ولقد تقدم هذا النهي في السورة آنفاً ولكن هذه الآية جاءت بالتأكيد من جهة وبيان معالم هذه العداوة والحرب من جهة أخرى، أما معالم هذه العداوة فتتمثل في ثلاثة أمور هي:

1) مناجزة المسلمين القتال: وهو مستفاد من قوله تعالى: "الذين قاتلوكم في الدين"[87]، قال الإمام القرطبي: "أي جاهدوكم على الدين "[88]، وهذا القيد - أعني قوله تعالى (في الدين) - قد خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، بمعنى أن أي قتال من الكفار للمسلمين يعتبر قتالاً يحرم معه تولي الكفار.

2) إخراج المسلمين من ديارهم: وهو مستفاد من قوله تعالى: "وأخرجوكم من دياركم "[89]، ويدخل في هذا الوصف عتاة مكة من المشركين ابتداءً ثم أي جماعة من الكفار أخرجوا وطردوا المسلمين من ديارهم وشردوهم منها تبعاً، ولعل النكتة في هذا أن إخراج المسلمين من ديارهم ذريعة لعلو كلمة الباطل في تلك الديار وتسلط الكافرين عليها، وهذا مخالف لمقصود الشرع من إعلاء كلمة الله تعالى في الأرض.

3) المظاهرة على إخراج المسلمين من ديارهم: وهذا مستفاد من قوله تعالى: "وظاهروا على إخراجكم"[90]، قال الإمام القرطبي: "أي عاونوا على إخراجكم"[91]، قلت: وهذا تنبيه بالأدنى على الأعلى، لأنه إذا امتنع تولي الكفار لمجرد مساعدتهم غيرهم على طرد المسلمين من ديارهم فمن باب أولى تحريم توليهم إذا ساعدوا على قتل المسلمين أو انتهاك أعراضهم، لأن حرمة الدماء والأعراض أكبر من حرمة الأراضي والديار والأموال، فتأمل هذا فإن كثيراً مما نعيشه اليوم من عدوان على الإسلام والمسلمين يندرج تحت هذا الوصف ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإذا تبينت معالم الكفار المناجزين المسلمين بالحرب على النحو السابق كان من الظلم الشديد أن يتولى المسلم الكافر المتلبس بهذه الجرائم، (وأي ظلم بعد موالاة الفرد لأعداء أمته وأعداء الله ورسوله)[92]، وليكن نصب عيني المسلم أن لفظ الظلم في القرآن متفاوت المعنى وأن من ضمن هذه المعاني الكفر وهذا محتمل على أقل تقدير في مقامنا هذا، فليتنبه.

---

[87] سورة الممتحنة - 9
[88] الجامع لأحكام القرآن - 55/18
[89] سورة الممتحنة- 9
[90] السابق
[91] الجامع لأحكام القرآن - 55/18
[92] أضواء البيان - 323/5

المطلب الخامس: وجوب تميُّز وتمحيص أفراد المجتمع المسلم:

يمكننا القول أن مهمة الآيات السابقة من السورة تتمثل في تمايز الجماعتين المسلمة والكافرة ورسم حدود العلاقات بينهما، ولكن هل يكفي لقوة الصف المسلم أن يتميز عما هو في الخارج من جماعات أخرى، أم لا بد من تمحيص وتمييز أفراد الصف المسلم للتثبت من تحققهم بالحد الأدنى اللازم لثبوت الولاية الإيمانية لهم؟ لقد قدمت لنا هذه السورة نموذجين من نماذج هذا التمييز لأفراد المجتمع المسلم نعرضهما فيما يلي:

أولاً: الامتحان والاختبار:

إن التمحيص والامتحان أمرٌ ملازمٌ للتكليف، ولقد تقرر هذا المبدأ في هذه السورة المباركة من خلال آية الامتحان؛ فالتكليف بالهجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً وإلى دار الإسلام تبعاً لا بد له من ممحِّص يكشف مدى التجريد في نية المهاجر، وهذا ما تجده جلياً في قوله تعالى: "يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمناتٍ فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حِلٌّ لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم"[93]، قال الإمام القرطبي رحمه الله: "لما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة فبيَّن أحكام مهاجرة النساء"[94]، والحقيقة إن هذه الآية فيها الكثير من الدلالات المهمة المتعلقة بمسألة الولاء والبراء حري بنا أن نقف عندها، ولن أخوض كثيراً في التفاصيل الفقهية المتعلقة بالنكاح لأن هذا مبسوط في موضعه ومظانه من كتب التفسير والفقه.

لقد تقدم معنا في مبحث أسباب النزول أن الله تعالى أنزل الآية آمراً النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بامتحان المؤمنات الهاجرات وأن امتحانهن كان بآية البيعة على قول أمنا عائشة رضي الله عنها - ولا معارضة في ذلك لباقي الأقوال - وإن التدبر في هذه الآية يُلجئ المرء إلى تساؤل مهم وهو: لماذا كان الامتحان مختصاً بالنساء دون الرجال؟

نقل الحافظ ابن حجر عن الإمام الطبري وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المرأة من المشركين كانت إذا غضبت على زوجها قالت: والله لأهاجرن إلى محمد، فنزلت (فامتحنوهن)[95]، ذلك أن الرجال كانوا إذا هاجروا ترتب على

---

[93] سورة الممتحنة - 10
[94] الجامع لأحكام القرآن - 55/18
[95] فتح الباري- 629/9

هجرتهم زمرة من التكاليف كالجهاد والنصرة التي تعتبر بحد ذاتها ممحصاً وامتحاناً، فلما كانت النساء لا يترتب عليهن شيء من ذلك كان لا بد من تمحيص آخر يوزاي تمحيص الرجال بالجهاد والنصرة[96]، ولهذا شاهد من السنة النبوية فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: "قلت: يارسول الله على النساء جهاد؟ قال: نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه، الحج والعمرة"[97] والشاهد أن الشريعة جعلت على النساء تكاليف معينة موازية لتكاليف أخرى فرضت على الرجال لا تناسب النساء، فكان الامتحان هنا بهذه الآية إما باستحلاف النساء أو بأخذ البيعة عليهن كما تقدم معنا في معرض الحديث عن سبب نزول الآية. وهذا الامتحان امتحانٌ بأمرٍ ظاهر ينعقد به عقد الإيمان المجمل للمهاجرة الجديدة فتستحق به ما يستحقه كل مسلم من موالاة ونصرة وأخوة، ويؤخذ من هذا أن كل من ظهرت منه علامات الإسلام والإيمان الظاهرة فقد وجبت له الولاية الإيمانية العامة والنصرة الإيمانية العامة لمجرد كونه مسلماً.

ولما كان إيمان المؤمنة وهجرتها يترتب عليه فسخ نكاحها من زوجها الكافر الذي هجرته، كان من تمام التشريع الالتفات إلى الأنكحة المستصحبة في المجتمع المسلم الجديد وتطهيرها مما لا يليق بمقام التبرؤ من الكفر كل الكفر، فجاء الأمر بفك عصمة المسلمين لزوجاتهم الكافرات كما ذكره المفسرون، وهنا مسألة لطيفة جداً لعلها من الحكم الخفية وراء الأمر بامتحان المؤمنات المهاجرات، فهذه المؤمنة المهاجرة لو لم يؤمر بامتحانها لما شعر بها المسلمون ولربما عزَّ عليها أن تعرض نفسها للزواج لما في ذلك من شبهة ابتغاء عرض الدنيا وهي التي هاجرت للتو من دار الكفر لدار الإسلام ابتغاء ما عند الله عز وجل ناهيك عن عزة نفسها التي لا تريد خدشها تارة بترك زوجها الأول وتارة أخرى بالبحث عن زوج جديد، فكان في الأمر بامتحان هؤلاء النسوة نوع تنبيه للمسلمين على أن هذه المهاجرة الجديدة بحاجة إلى من يحصنها ويعصمها بالزواج منها وهذا يكاد يكون صريحاً في قوله تعالى: "ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن"[98]، وهذا الشرط بإعطاء المهر والصداق فيه إشارة إلى عدم استغلال وضعهن فيبخسهن مهورهن، فإذا كان الأمر كذلك من محاولة التعريض بنكاح هؤلاء النسوة كان من المناسب جداً أن يأتي الأمر بفك عصمة الزوجات الكافرات تكميلاً للبراء من الكفر من جهة، وإبراءً لذمم المسلمين المشغولة بهؤلاء الزوجات لتتسع للزوجات الجدد، إنها عملية تطهير للمجتمع المسلم من الصنف الكافر ليحل محله الصنف المؤمن، لا سيما في بيوت وأسر المسلمين التي ستتحول إلى مصانع الرجال المؤمنين، ثم جاءت الأوامر والتوجيهات بتصفية النواحي المادية المتعلقة بفسخ الأنكحة القديمة وإنشاء هذه الأنكحة الجديدة حتى لا تقف الأمور المادية عقبة أمام سيل التطهير هذا، فكان الحل الحاسم والأمر الجازم في قوله تعالى: "واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا

---

[96] راجع غير مأمور: أضواء البيان - 327/5
[97] سنن ابن ماجة - كتاب المناسك -حديث 2892
[98] سورة الممتحنة - 10

ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم. وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون"[99]، وكأن الآية لا تدع مجالاً لمعتذر عن فسخ نكاح أو إنشاء آخر بحجة خشية فوات المال ونحوه، ولما كان الأمر للمسلمين برد مهور المهاجرات إلى أزواجهن السابقين من المشركين ولم يكن لهم ما يضمن رد المشركين لمهور المشركات اللائي فك المسلمون عصمتهن أراحت الآية هؤلاء بأن جعلت لهم تعويضاً مادياً من خزينة الدولة المسلمة مما أفاءه الله تعالى على بيت مال المسلمين من الأموال، فالمسألة أكبر من مهر امرأة وفوات زوج، ولعل المتدبر يجد المناسبة بين هذا كله وبين الأمر بتقوى الله تعالى جلية واضحة.

ثانياً: البيعة:

إن الامتحان السابق المتعلق بالهجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم حادثة معينة انقضى زمانها وانقضى حكمها الخاص المتعلق بالهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة كما هو نص الحديث عنه صلوات الله وسلامه عليه: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية"[100]، ولكن الحاجة إلى تمحيص الأفراد وتحقيق جملة من المظاهر العملية التي يتميز بها من له حق الولاية والنصرة عن غيره أمرٌ قائمٌ ما قامت للمسلمين جماعة، وهنا يبرز دور الآية التالية من السورة حيث قال تعالى: "يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم"[101]، حيث قررت هذه الآية المنهج العملي الذي يجب على المسلم أو المهاجر الجديد أن يلتزم به، لا أقول المهاجر من مكة إلى المدينة بل أقول المهاجر من الكفر إلى الإسلام ومن الفسق إلى الطاعة والانقياد، إنها الهجرة التي لا تنقطع والتي نبه عليها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في قوله: "والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"[102]، فالسورة تنتقل من خصوصيات الواقعة إلى عموميات المبدأ بأسلوبٍ بديع حيث إنه من السهل الوقوف والجمود على خصوصياتٍ واقعة معينة ومحاولة التملص من الالتزام بها، ولكن أي حجة تبقى لمن قررت له السورة هذا المنهج القرآني الفريد في الهجرة إلى الله تعالى على سنن رسوله صلى الله عليه وسلم؟ وبكلام آخر فإن مسألة الولاء والبراء التي تقرر أنها تدور حول معقدٍ واحدٍ وحيد هو الدين لا بد لها من أمارات وعلامات تمكن آحاد المتعاقدين من التعرف على بعضهم البعض، وهنا يبرز دور بنود هذه البيعة الفريدة في تحقيق هذه الأمارات، ولا يستشكل أحدٌ تعدد بنود البيعة وبالتالي تعدد علامات الانتماء، إذا أن مدار المسألة على وجود حد أدنى هو

---

[99] سورة الممتحنة - 10-11
[100] صحيح مسلم - كتاب الإمارة - حديث 1864
[101] سورة الممتحنة - 12
[102] صحيح البخاري - كتاب الإيمان - حديث 9

الإيمان المجمل الذي يستحق معه أصل الموالاة الإيمانية وهذا مقرر في مواضع أخرى من السورة كما أنه مقرر بالبند الأول من البيعة: "ألا يشركن بالله شيئاً"، ثم إن الإيمان ليتفاضل زيادةً ونقصاناً بحسب الالتزام ببنود البيعة الأخرى، فكلما التزم المسلم ببنود البيعة كلما زاد حظه من الموالاة الإيمانية، ومهما أخل ببند من البنود مع بقاء أصل الإيمان لديه استحق من الولاء والبراء بحسب ذلك كما نبهنا عليه عند الكلام على تبعض الولاء والبراء، وإن تحرير هذه المسألة اليوم من أهم ما يعين على التعامل مع المسلم الآخر الذي قلما يسلم اليوم من زلة أو كبوة في وقت نحن أحوج ما نكون إلى التماسك والترابط والنصرة والموالاة.

المطلب السادس: قاعدة جليلة في التبرؤ من الكفار:

لقد أمعنت السورة كما بينا في تقرير وتحرير مسائل الولاء والبراء، ولربما استغرق المتدبر في آياتها في بعض الجزئيات والتفاصيل فوجد نفسه بعيداً عن الأصل الذي جاءت السورة لتقريره، هذا مع ما أشرنا إليه سابقاً من الوحدة الموضوعية لهذه السورة العظيمة يتجلى بشكل بديع في تقرير هذه القاعدة القرآنية الجليلة حيث قال تعالى: "يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضِب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور"[103]، فهذه الآية إنما هي عَودٌ على بدء، حملها بعض المفسرين على التوكيد لعموم الكفار بعد أن بدأت السورة بفئةٍ خاصةٍ منهم هم كفار قريش، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: "ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال تعالى: "يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم" يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء"[104]، وذهب البعض من المفسرين إلى تخصيص المعنى باليهود باعتبار أن لفظ الغضب قد أصبح عَلَماً لهم في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: "غير المغضوب عليهم"[105]، وعليه فإن الآية تؤسس لمعنى جديد غايته قطع أمل المؤمنين عن الطمع في موادة وموالاة هذا الصنف من الكفار أي اليهود[106]، والحقيقة إن لفظ الغضب وإن كان عَلَماً على اليهود فإنه لا يختص بهم في القرآن الكريم فلقد ورد في المنافقين والمشركين أيضاً كما في قوله تعالى: "ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السَوء عليهم دائرة السَوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً"[107]، فلعل القول بعموم الكفار في هذا المقام أولى وأحرى، ولكن هنا نكتة دقيقة وهي أن غضب الله تعالى على اليهود ومن على شاكلتهم كان بسبب إعراضهم عن

[103] سورة الممتحنة - 13
[104] تفسير القرآن العظيم - 131/8
[105] سورة الفاتحة - 7
[106] أضواء البيان - 331/5
[107] سورة الفتح - 6

الهـدى والحـق بعـد إذ جـاءهم، وكـأن هـذا الوصـف تحـذيرٌ مبطن للمؤمـنين من أن يُعرضـوا عمـا جـاء في هـذه السـورة من أوامـر ونواهي فيعرضوا أنفسهم لغضب الله تعالى كما حصل من اليهـود ومن على شـاكلتهم من الكفـار، وهـذا غايـة التحـذير من سـلوك طريـق هـؤلاء لا سـيما وأنهم: "قـد يئسـوا من الآخـرة "[108] أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل[109]، "كمـا يئس الكفـار من أصحاب القبور"[110]، أي كما حكم الكفار بعدم بعث أمـواتهم أو كما انقطع رجاء من مـات من الكفـار ووُري القبـور من كـل خـير حيث انقطع رجاء توبتهم وكلا القولين بمعنى[111].

والحقيقة إن ختم السورة بهـذه الآيـة تلخيص لمـا ورد فيهـا من هذه الأصل الإيماني العظيم أعني أصل الولاء والبراء وقد نبـه اللـه تعـالى في الآيـة على مكـان التخليـة وهـو التـبرؤ من الكفـار صـراحةً واكتفت الآيـة بالمقابلـة الواضـحة بين هـذا التـبرؤ وبين الموالاة الواجبة لله ورسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم والمؤمـنين حيث ترسـخت هـذه المقابلـة بين هـذين الضـدين واسـتقرت في قلوب المؤمنين بعد هـذه السـورة ضـرورة هـذا التلازم بين الـولاء والبراء، فكانت هذه الآية قاعدة جليلة وجـيزة مفادهـا: إيـاكم أيهـا المؤمنون الموالون لله تعالى وحزبه من أن تتولـوا أولئـك الكفـرة الذين نالوا غضب مولاكم فإن ذلك سبيل إلى الانقطـاع عن الخـير كل الخير.

والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث
منهج سورة الممتحنة في تقرير مسائل الولاء والبراء

تقدمت معنا أبرز مسائل الـولاء والـبراء الـتي تناولتهـا هـذه السـورة الكريمـة، ولمـا كـان منهج السـورة أقـرب إلى التقـويم والتوجيه لانحرافات الواقع التي زلت بها قدم المسـلمين أحيانـاً أو لاجتهادات اختلطت فيها بعض الجزئيـات ببعض، كـان من الـواجب علينا التدبر في منهج هذه السورة في تقرير مسائل الولاء والبراء هذه حتى يُستعان بها على غرس نتبتها في قلوب المؤمـنين اليـوم وكل يوم، وفيما يلي عرض أبرز معالم هذا المنهج القرآني البـديع، فلنتدبر...

[108] سورة الممتحنة - 13
[109] تفسير القرآن العظيم - 131/8
[110] سورة الممتحنة - 13
[111] تفسير القرآن العظيم - 132/8 بتصرف

أولاً: أسلوب التهييج:

لقد كان أسلوب التهييج بارزاً جداً في هذه السورة من خلال عرض جملة من الحقائق وتذكير المؤمنين المخاطبين بها، وهذا الأسلوب القرآني كثيراً ما يرد في مواطن استنهاض الهمم والإقدام على ما فيه نوع تضحية وبذل في سبيل الله تعالى كمواطن الجهاد ونحوه، ولما كان مدار عقيدة الولاء والبراء على قطع العلائق مع المخلوقين وتجريد العلاقة مع رب العالمين برزت الحاجة إلى استنهاض هذه الهمم للقيام بتكاليف وأعباء هذه المهمة من خلال التهييج الذي ورد في المواضع التالية من السورة:

1) النداء الإيماني: فقد استفتحت السورة الخطاب بنداء أهل الإيمان بأحب الأوصاف لديهم: "يأيها الذين آمنوا"، ذكر ابن كثير رحمه الله أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "إذا سمعت الله يقول (يأيها الذين آمنوا) فارعها سمعك، فإنه خير يؤمر به أو شر ينهى عنه"[112]، فكأن النداء بهذه الوصف تنبيه للسامع بأن الانقياد للمأمور به والانتهاء عن المنهي عنه من صفات المؤمنين، ومفهوم المخالفة أن ترك المأمور به واقترف المنهي عنه ليس من وصف المؤمنين بل من وصف غيرهم، وكفى بهذا مهيجاً لمن وقرت لا إله إلا الله في قلبه.

2) التنبيه على صفات الكفار المذمومة: فمن هذه الصفات ما هو فيهم بطبيعة الكفر فيكون عاماً ومنها ما هو فيهم بواقع الحال فيكون خاصاً، فمن الصفات العامة التي تستدعي عداوتهم لمجرد حصولها فيهم كونهم أعداء الله تعالى، كما قال تعالى: "عدوي وعدوكم"[113] وهذا يعني أن مجرد وصف الكفر كافٍ للتبرؤ من هؤلاء ومقاطعتهم ناهيك عن منع التودد إليهم، ومن الصفات الخاصة ما كان في كفار قريش في واقع الأمر من مناجزة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين العداء والإخراج من مكة كما قال تعالى: "يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم"[114]، قال ابن كثير: "هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم لأنهم أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بين أظهرهم كراهةً لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده"[115]، قلت: وهذا الإخراج وإن كان أول ما حصل من كفار قريش للرسول صلى الله عليه وسلم فإن ينطبق على كل ما يأتي من مواقف الكفار في المستقبل حيث يضطهدون المؤمنين ويشردونهم من ديارهم كما هو واقع الحال اليوم، ولقد تقدم معنا كيف جعلت السورة من هذا الإخراج بل ومن المظاهرة عليه ضابطاً في وصف الكفار الذين لا تحل موالاتهم.

[112] تفسير القرآن العظيم - 489/1
[113] سورة الممتحنة - 1
[114] السابق
[115] تفسير القرآن العظيم - 110/8

3) بيان حرص الكفار على عدم نيل المسلمين الخير: فلقد زادت الآية مهيجاً آخر حيث قال تعالى: "وودوا لو تكفرون"[116]، حيث كشف الله تعالى عن باطن هؤلاء وما يُسِرونه من العداوة لينتبه المسلمون على أن العداوة الظاهرة من هؤلاء ليست أمراً عارضاً وإنما هو ظاهرٌ مطابقٌ لباطن العداوة المتأصل لديهم، قال ابن كثير رحمه الله: "أي ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً"[117].

4) التذكير بالآخرة: فالآخرة هي رجاء المسلم، وإن من أسلوب القرآن الحث على التزام الطاعة وهجر المعصية على أمل لقاء الله تعالى على الوجه الذي يرضيه سبحانه وتعالى، ونحن نجد هذا المعنى في قوله تعالى: "لمن كان يرجو الله واليوم الآخر"[118]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: "وقوله تعالى تهييج إلى ذلك - أي التأسي بإبراهيم عليه السلام - لكل مؤمن بالله والمعاد"[119].

ثانياً: أسلوب المقابلة بين النظائر والأضداد:

تكاد تتميز سورة الممتحنة بهذا الأسلوب في عرض المسائل حيث تقرر السورة المبدأ المطلوب ثم تمثل عليه بمثال عملي تطبيقي ثم تزيد الأمر وضوحاً بذكر ضده والتحذير منه، وهذا الأسلوب غاية ما يكون في الحسن والتأكيد حتى لا يكاد المتدبر ينتهي من تدبر السورة إلا وقد ترسخت في قلبه هذه المعاني، وفيما يلي عرض لبعض نماذج هذه المقابلة:

1) بدأت السورة بالنهي عن موالاة الكفار في موقفٍ خاص كما ورد في قصة حاطب رضي الله عنه، ثم ثنَّت بعرض نموذج تطبيقي من قصة إبراهيم عليه السلام، وكما كان الإنكار في الموقف الأول على سلوك حاطب رضي الله عنه في التولي الظاهر للكفار مع سلامة قلبه تجاه الله ورسوله، كان الاستثناء في الموقف الثاني وارداً على سلوك إبراهيم عليه السلام الظاهر مع أبيه الكافر مع سلامة قلبه صلوات الله وسلامه عليه لله تعالى ومع وجود العذر والتأويل الظاهر كما ورد في غير موضع من القرآن الكريم، والشاهد أن هذا العرض المتزن للأنموذجين قد ساعد على تمييز الحق من الباطل وتحرير موضع الحمد من الذم وموضع التأسي من الاجتناب، وهنا نكتة أخرى دقيقة وهي أن الموقفين قد حصلا مع رسول من أولي العزم في الموقف الثاني ومع صحابي بدري قد غفر الله له ولطبقته في الموقف الأول، ومع ذلك لم يمتنع الإنكار والاستثناء، وهذا يُشعر بفداحة الخطب وجلالة الأمر الذي عرض الموقفان لأجله.

---

[116] سورة الممتحنة - 1
[117] تفسير القرآن العظيم- 111/8
[118] سورة الممتحنة - 6
[119] تفسير القرآن العظيم - 113/8 وما بين معقوفتين من كلامي للتوضيح

2) عـادت السـورة بعدئـذٍ لتعمم مبـدأ التـبرؤ من الكفـار والكـف عن مـوالاتهم من خلال عـرض نمـوجين متقـابلين همـا: الكفار الذين (لم يقـاتلوا المسـلمين ولم يخرجـوهم من ديـارهم) فأنـاطت الرخصـة بـالبر والقسـط بهم، في مقابـل الكفـار الـذين (قـــاتلوا المســـلمين وأخرجـــوهم من ديـــارهم وظـــاهروا على إخراجهم) فأناطت التحريم بهم، وهذا في غاية التمـايز والوضـوح، وكما قيل: بضدها تتميز الأشياء.

3) المقابلة بين الهجرة للـه تعـالى والهجـرة لعَـرَض الـدنيا، وهذا معروض ضمنياً في آيـة الامتحـان، بـل ليس للامتحـان معـنى سوى هذا، وهنا نكتة لطيفة وهي أن الهجرة للدنيا لما كـانت أمـراً حقيراً لا يسـتحق الاهتمـام بـه والسـعي لـه كـان مناسـباً ألا يـذكر صـراحةً في الآيـة وإنمـا يُفهم ضـمناً من خلال تحريـر الغايـة من الامتحان وهي التأكيد على تجريـد نيـة الهجـرة للـه تعـالى وحـده، فتأمل.

4) المقابلة بين حُكم الكفار بعـدم بعث أمـواتهم وبين حكم الله بعدم نيل الكفار شيئاً من ثواب الآخرة ونعيمها، وهذا من باب المعاقبة بجنس العمل، فقوله تعالى في وصف الكفار: "كمـا يئس الكفار من أصحاب القبـور"[120] بيـان لمـا حكم بـه الكفـار زوراً من انقطاع الأمـل في عـودة أمـواتهم وبعثهم ومعـادهم ومقابلـة هـذا الحكم بحكم الله عز وجـل عليهم: "قـد يئسـوا من الآخـرة"[121] أي انقطــع في حكم اللــه رجــاؤهم من أي خــيرٍ أو نعيمٍ ينالونــه في الآخرة، وهذا غاية العدل والحكمة.

فهذه بعض المواقف التي قابلت فيها السـورة بين الأضـداد لتزداد تمايزاً ولا يبقى لمسـلم حجـةٌ بعـد الرسـل فالحمـد للـه أن جعلنا من زمرة المخاطبين بهذا الكتاب العظيم.

ثالثاً: تكامل بيان القرآن والسنة:

إن السنة النبوية شقيقة القرآن الكريم ومثيلته في الحجيــة والاعتبار، ولقد قال الله تعالى: "وما ينطـق عن الهـوى. إن هـو إلا وحيٌ يوحى"[122]، وقال صلوات اللـه وسـلامه عليـه: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثلـه معـه"[123]، وإن سـورة الممتحنـة تتضـمن بعض أروع نماذج التكامل والتوافـق بين البيـان القـرآني والحـديثي، ولسـوف أعرض النموذجين الذين تمثل فيهما هذا التكامل والـذي أدى دوراً مهماً في تقرير مسائل هذه السورة من خلال هذا البيان التكاملي والتوكيدي لنصوص الوحيين، فنتدبر:

1) النموذج الأول: ويتمثل في مسـألة هجـرة المؤمنـات وردهن إلى الكفار، ولقد تقدم معنا أن أحـد بنـود العهـد بين النـبي

[120] سورة الممتحنة - 13
[121] السابق
[122] سورة النجم - 3-4
[123] سنن أبي داود - كتاب السنة - حديث 3988

صلى الله عليه وسلم وبين مشركي قـريش نص على رد من جاء من المسلمين فاراً من قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يرده النبي صلى الله عليه وسلم إلى قريش، وكان هـذا عامـاً في الرجال والنساء، ولكن لما كانت ولاية النساء قاصرةً وكان أمرهن بيد أوليائهن، ولما كان الإسلام يعلـو ولا يُعلى عليـه، نـزل الـوحي القرآني ليخـرج النسـاء من هـذا الحكم الـذي تقـرر بالسـنة بـادي الأمر، قال ابن كثير رحمـه اللـه بعـد الكلام عن البنـد السـابق في صـلح الحديبيـة: "فعلى هـذه الروايـة تكـون هـذه الآيـة مخصصـة للسنة، وهذا من أحسـن أمثلـة ذلـك، وعلى طريقـة بعض السـلف ناسخةـ"[124]، وقال القرطبي رحمه الله تعـالى: "أكـثر العلمـاء على أن هذا ناسخ لما كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشـاً"[125]، فوحي القرآن ووحي السنة يعضد بعضـهما بعضـاً ويكمـل بعضـهما بعضاً، ولئن كان الأكثر شيوعاً أن تقوم السنة ببيان إجمال القـرآن وتقييد مطلقه وتخصيص عامه، فإن قيام القرآن بمهمة التخصـيص هنا له دلالةٌ مهمةٌ على خطـورة هـذه المسـألة من مسـائل الـولاء الإيماني، والشاهد هنا أن نصوص الوحيين من القرآن والسـنة قـد تكامل دورها في تحرير هذه المسألة على نحو ما تقدم آنفاً.

2) النموذج الثاني: وهـذا النمـوذج تتجلى فيـه المقابلـة والموافقـة التامـة بين نص الـوحي القـرآني ونص السـنة النبويـة، تأمل معي حديث عبادة بن الصامت رضـي اللـه عنـه وكـان شـهد بدراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم قال وحوله عصابة من أصـحابه: "بـايعوني على ألا تشـركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلـوا أولادكم ولا تـأتوا ببهتـان تفترونـه بين أيـديكم وأرجلكم ولا تعصـوا في معـروف، فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلـك شـيئاً فعـوقب بـه في الدنيا فهو كفارةٌ له ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم سـتره اللـه فهـو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبـه فبايعنـاه على ذلـك"[126]، فتأمل بنود هذه البيعة التي بايع الرجال عليهـا وقارنهـا ببنـود بيعـة النساء: "إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشـركن باللـه شـيئاً ولا يسـرقن ولا يـزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يـأتين ببهتـان يفترينـه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصـينك في معـروف فبـايعهن واسـتغفر لهن الله"[127]، بل إنه جاء في رواية أخرى لحديث عبادة رضي اللـه عنه: "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقـال: "أتبـايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا " وقرأ آية النسـاء.."[128] فهـذا صـريح في تطـابق بنـود البيعـتين أعـني بيعـة النسـاء وبيعـة الرجـال، وإن هـذا التوافـق من أجمـل مـا وجـدت من التوافـق والتطابق بين القـرآن والسـنة، وكيـف لا وهمـا إنمـا يصـدران عن مشكاة واحدة!

رابعاً: مناسبة أسماء الله في خواتيم الآيات:

124 تفسير القرآن العظيم - 117/8
125 الجامع لأحكام القرآن - 57/18
126 صحيح البخاري- كتاب الإيمان - حديث 17
127 سورة الممتحنة - 12
128 صحيح البخاري - كتاب التفسير - حديث 4894

إن المتدبر في آيات هذه السورة يجد - كما يجد في تدبر سائر سور القرآن - مناسباتٍ لطيفةً وبديعة بين أسماء الله تعالى التي ذيلت بها الآيات وبين مضمون هذه الآيات، وهذا مما يكسب المعنى قوةً وترابطاً حيث يشير إلى أن هذا التشريع من لدن العليم بخلقه الحكيم في حكمه وتشريعه، وفيما يلي طائفة من هذه المناسبات أذكرها مع بيان جهة المناسبة إن شاء الله:

1) قوله تعالى: "وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل. إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون. لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يومَ القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير"[129]، يخبر الله تعالى عباده المؤمنين في هذه الآيات بأنه مطلع على تصرفاتهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة كما أنه مطلع على أحوال أعدائهم ودوافعهم الكامنة، ويخبر سبحانه وتعالى أنه يرجئ الحكم والفصل النهائي بين الفريقين إلى يوم القيامة، فكان من المناسب أن يأتي قوله تعالى (والله بما تعملون بصير) كي يطمئن المؤمنون غاية الطمأنينة إلى أن هذه الأوامر والتوجيهات صادرة عمن له كامل العلم والإحاطة والبصر بأعمالهم ومآلهم فلا تتردد في الانقياد لأمره سبحانه وتعالى مع ما فيه من قطع الوشائج مع الخلق.

2) في قوله تعالى: "ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم"[130] جاء اسم الله تعالى (العزيز) و (الحكيم) في غاية المناسبة لمقام الدعاء حيث انقطع المؤمنون عن الخلق ولاذوا بجناب الله تعالى يرومون العزة عنده فهو العزيز بذاته غير مفتقرٍ لغيره، وأقروا له سبحانه وتعالى بتمام الحكمة فيما يختاره لهم من تشريعات وابتلاءات، وقد تقدم الكلام على هذا وإنما أردت التنبيه على هذه المناسبة.

3) في قوله تعالى: "ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد"[131] دفعُ توهم حاجة الله تعالى إلى خلقه بل هو سبحانه الغني بذاته والكل مفتقرٌ إليه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، فهو غنيٌ بذاته حميدٌ في صفاته وهذا أيضاً في غاية المناسبة للمقام.

4) في قوله تعالى: "والله قدير والله غفورٌ رحيم"[132] فتح باب الرجاء في العفو والمغفرة فالله تعالى هو مقلب القلوب القادر على هدايتها واستنقاذها من الكفر حتى إذا وفق الله تعالى عبداً من عبيده للإيمان فاضت مغفرته ورحمته سبحانه وتعالى عليه فجبَّ الإسلام ما كان قبله من الكفر وتقلب العبد في نعيم اليقين بعد أن كان حبيس الهم والضيق وظلمة الكفر وريبته، وقل مثل هذا في قوله تعالى في آخر آية البيعة: "فبايعهن واستغفر

[129] سورة الممتحنة - 1-3
[130] سورة الممتحنة - 5
[131] سورة الممتحنة - 6
[132] سورة الممتحنة - 7

لهن الله إن الله غفور رحيم"[133]، فهذا باب المغفرة واسع مشـرع لمن أراد أن يخلع الكفر ويتبرأ منه ويتدثر بثوب الإيمان ويتولى أهله فلا تهولنه معاصيه وسابقة كفره فتمنعه من هذا الخير أو تصرفه عنه فإن الله تعالى واسع المغفرة واسع الرحمة، فالمناسبة بين اسم الغفور الرحيم وسياق الآية واضحة جداً.

5) قوله تعالى: "والله عليم حكيم"[134] مناسب لجملة الأحكام التي وردت في آية الامتحان لا سيما وأن الأمر قد ورد فيها بتقطيع أوصال علاقات قائمة وإنشاء روابط علاقات جديدة مع ما في ذلك من احتمال فوات الأموال والأزواج فكان لا بد من تثبيت قلوب المؤمنين بتذكيرهم بأن هذه الأوامر إنما صدرت من لدن عليم بما يصلح حال خلقه حكيمٍ في اختيار ما يختبرهم ويبلوهم بهً.

وهكذا تبينت لنا بعض معالم المنهج القرآني الفريد الذي ساهم في ترسيخ معاني السورة وتقرير أحكامها، ولا ريب أن هناك المزيد لمن تأمل وتدبر ولكني أقف عند هذا الحد في هذا المقام حيث تحقق المقصود من إبراز خصوصية منهج هذه السورة الكريمة.

الخاتمة

لقد تبين لنا من خلال ما تقدم أن سورة الممتحنة هي بحق سورة الولاء والبراء، ولا أقول هذا مبالغةً ولا انتصاراً لما عرضته في بداية البحث وإنما هي النتيجة التي لا يسع المرء إلا أن يسلم نفسه إليها بعد أن استعرضنا مفردات هذه السورة على وجازة ما قدمنا.

---

133 سورة الممتحنة - 12
134 سورة الممتحنة - 10

والشاهد أنه ما من آية ولا جزئية من هـذه السـورة إلا وهي تصب في بوتقة الولاء والبراء سواءٌ أكان من جهة الاعتقاد أم كان من جهة الأقوال أو الأفعال.

ولسوف أحاول تلخيص أبرز الأمور المستفادة من هذه السورة فيما يلي:

1) إن الولاء والبراء من مسائل العقيدة التي اعتنى القـرآن المدني بها بنفس الأهمية التي اعتنى بها القـرآن المكي مـع تمـيز القـرآن المـدني بالتفصـيل في الأحكـام المتعلقـة بمسـألة الـولاء والبراء.

2) إن معقد الولاء والبراء في الإسلام هـو الـدين لا غـير فلا اعتبار لقرابة ولا لمصالح مادية ولا لروابط الدم والنسل والزوجية، وإنما يجوز أن تعتبر هذه الروابـط تبعـاً بعـد تحقـق أصل المـوالاة الإيمانيـة، أمـا والمـرء مقيم على الكفـر فلا وشـيجة ولا صـلة ولا كرامة.

3) ضرورة الاهتمام بتوجيـه الناشـئة وإرشـادهم إلى حسـن الاقتداء والتأسي بأحسن خلق الله تعالى وهم الأنبيـاء والرسـل ثم من سار على نهجهم متبعاً غير مبتـدع حـتى نصـل إلى مـا وصـلوا إليه من الفوز برضوان الله تعالى.

4) فهم مسألة تبعُض الـولاء والـبراء وأن المـرء قـد يجتمـع فيه إيمان وفجور أو إسلام وفسق أو طاعـة ومعصـية فيـوالى من جهة ما يوافق الحق ويتـبرأ من الباطـل الـذي تلبس بـه، ولا يجـوز الإخلال بأصـل المـوالاة الإيمانيـة المسـتحَق بانعقـاد عقـد الإيمـان المجمل بسبب التلبس بجزئيات خاطئة.

5) حسن الالتجاء إلى الله تعالى والتوكل عليه وعدم شهود ما سواه مع الركون والاطمئنان التام إلى ما عند الله تعـالى وأنـه خير من الدنيا وما فيها.

6) اليقين بـأن الظهـور العـابر والمـؤقت للكفـار إنمـا هـو استدراجٌ لهم وتمحيصٌ لأهل الإيمان فلا يغتر أحد بما هم عليـه من الباطل فيفرِّط بما هداه الله تعالى إليه من الحق.

7) مراعاة الضوابط الشرعية في التعامل مع صنفي الكفار مسـالمين وغـير مسـالمين فلا يجحـف ويَفـرِط على الأولى بـدون وجه حق، ولا يغتر ويسترسل مع الثانية ممنياً نفسه هواها.

8) عقـد النيـة والعزيمـة على الهجـرة إلى اللـه تعـالى بالإخلاص وإلى الرسول صلى الله عليـه وسـلم بالمتابعـة وتجديـد هذه النية والمرابطة عليها حتى يوم الفصل واللقاء.

9) الدخول في بيعة الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم على التوحيد والطاعة وتيقن أن الله تعالى غفورٌ رحيمٌ لمن زلت قدمـه فنـدم وتـاب وأسـرع فأنـاب، فهـذه البيعـة هي شـعار المسـلمين يتعارفون بها ويتوالون عليها ويتناصرون للذب عنها.

10) عدم الاغترار والطمع بما عنـد الكفـار فهم أعـداء اللـه الـذين غضـب عليهم فبـاؤوا بخسـارة الـدارين وحرمـوا من نعيم الآخرة فموالاتهم غاية الخسران.

11) التنبه والحذر من خرق عقد الولاء والبراء إذ أنه مظنـة المـروق من الـدين ومزلـة العبـد إلى دركـات النفـاق والكفـر، وملاحظة أن ذلك الخرق قد يكون بالقلب أواللسـان أوالجـوارح أو جميعها معاً.

هذه أبرز النقاط التي تمحضت في سـياق هـذ البحث ولقـد عرجنا على كثير من الجزئيات التي لا أطيل بتكرارها.

والحقيقة إن أحكم وسيلة لضبط مسـائل هـذه السـورة هي العودة إلى تلاوتها بتدبر وإمعان ويقين واستسلام لأمر الله تعـالى، نستحضر سياقها وملابساتها ونتعـوذ باللـه من الشـيطان ثم ننكب على آياتها وتوجيهاتها سائلين أنفسنا:

أين نحن من هذه الآية؟

وأين نحن من هذا الأمر والنهي؟

وأين نحن من هــذين الفــريقين، وإلى أي الفســطاطين ننتمي؛ إلى حزب الله وأوليائـه المنصـورين أم أعـداء اللـه وحَربـه المغضوبين؟

<u>ختاماً:</u>

أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت فيما قدمت وأُشهد الله تعالى أن ما كان فيه من حق وخـير فهـو من اللـه تعـالى وبفضـله وحده سبحانه، وما كـان خلاف ذلـك من زلـة أو خطـأ فمـني ومن الشيطان، واللهُ ورسولُه منه بـريء وأنـا منـه متـبرئ وعنـه راجـع وعليه نادم، وما هو إلا جُهد المُقِل واجتهاد غير معصوم عن الزلــل ولكنها رحمة الله الـتي نرجـو ونسـير في ظلهـا محـاولين الإنقيـاد لأمر الله تعالى بتدبر كتابه وفهم معانيه ولكن أين الهمم والأعمال من الأمـاني والآمـال، أسـأل اللـه العظيم أن يغفـر لنـا زلاتنـا وأن يصلح أقوالنا ويتقبل أعمالنا إنه خير مأمول وأكرم مسؤول.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وسيم محمود فتح الله

فهرس المراجع

1) أصول الفقه - محمد أبوزهرة - دار الفكر العربي - القاهرة - 1997
2) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين الشنقيطي وتتمته لعطية محمد سالم - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الأولى - 1996
3) تفسير القرآن العظيم - الحافظ ابن كثير - تحقيق مجلس التحقيق العلمي دار الفتح - دار الفتح - الشارقة - الطبعة الأولى - 1999
4) الجامع لأحكام القرآن - الإمام القرطبي- تحقيق عبد الرزاق المهدي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية - 1999
5) الرحيق المختوم - صفي الرحمن المباركفوري - مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - الطبعة الأولى - 1996
6) شرح صحيح مسلم - الإمام النووي - المكتبة العصرية - بيروت - الطبعة الأولى - 2001
7) فتح الباري شرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز - دار الفكر - بيروت - 1993

8) القاموس المحيط - الفيروزآبادي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثالثة - 1993
9) مجموع الفتاوى - شيخ الإسلام ابن تيمية - دار الجيل - الطبعة الأولى - 1997
10) مناهل العرفان في علوم القرآن - عبد العظيم الزرقاني - المكتبة العصرية - بيروت - 2001
11) الموافقات في أصول الأحكام - الإمام الشاطبي - دار الفكر للطباعة والنشر
12) موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة) - إشراف ومراجعة الشيخ صالح بت عبد العزيز آل الشيخ - دار السلام - الرياض - الطبعة الثالثة - 2000

فهرس الموضوعات

منبر التوحيد والجهاد

* * *

sw.dehwat.www//:ptth
moc.esedqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth
moc.adataq-uba.www//:ptth